

الدكتور روجيه فارودي

---

# الوجودية

## فلسفة الاستنعاء

ترجمة

محمد عيتاني

منشورات حد يرون

جميع الحقوق محفوظة للأمر

## — مقدمة —



### الوجودية فلسفة بورجوازية

سوف نبين باديء ذي بدء ، في صدد مثال ملموس وهو نظرية المعرفة عند — ميرلوبونتي — كيف ان الفلسفة تابعة للنشاط العملي الاجتماعي لطبقة معينة .  
ومن اجل ذلك ، فمن الضروري ان تقع هذه الفلسفة ( اي الفلسفة الوجودية ) بما يجاز في موضعها من خط سير الفلسفة البورجوازية .

اولاً : مرحلة صعود البورجوازية ، التي يعبر عنها باديء بدء ، عند مفكري النهضة وعند ديكارت ، وقد ازدهرت مع المذهب التجريبي الانكليزي الذي يهيمن

عليه فكر (لوك) ؛ مع ماذبي القرن الثامن عشر  
الفرنسيين، الملتفين حول (ديدرو) مع مثالية - هيغل -  
الموضوعية في المانيا .

والخاصة المشتركة بين هذه الفلسفات ( رغم كونها  
ذات اتجاهات مختلفة جداً ) هي انها تعبر عن مفهوم  
للعالم ، وأن هذا المفهوم للعالم ، يتركز على نتائج العلوم  
التي يعممها ، وانه متفائل ( متفوق ، متغلب ، يتجه  
نحو الظفر ) ، إنه يجد قدرة العلم والتقدم اللا محدود  
للإنسان .

ذلك لان الطبقة البورجوازية ، كانت تصعد  
للاستيلاء على الحكم ، وكانت واثقة بالمستقبل . وكان  
التاريخ العلمي الموضوعي ، لا يمكن إلا ان يبين ضرورة  
استيلاء البورجوازية على الحكم ، وكان كل نقد علمي  
يخدمها في كشف تناقضات النظام الآخذ في الموت .  
ومن أجل مهاجمة المفهوم الاقطاعي عن الحق الالهي

اتخذت البورجوازية ( المادية ) سلاحاً لها . وبدلاً من ان تلتمس ما وراء الحقيقة ، مبدأ لاهوتياً يبررها ، جعلت تطالب بالاكْتفاء بالحقيقة الواقعية العادية ، دون أية اضافة خارجية .

فلو جرى فحص الوقائع في ذاتها ، دون ان تلتمس لها مبررات سماوية ، فاذا تكشف حركة التاريخ ؟

ان قوانين الواقع ، ان « العلاقات المترتبة على طبيعة الاشياء ، والنابعة من طبيعة الاشياء » كما كان يقول مونتسكيو ، كانت تضجر تناقضات المجتمع الاقطاعي ، القائم على الحكم المطلق والذي ما كان يستطيع تبرير نفسه ، الا بوساطة أوهام سحرية أسرارية لاهوتية ، من طراز تلك التي عرضها بوسويه ، نظري النظام الملكي المطلق ، في كتابه : سياسة مستمدة من الكتاب المقدس .

غير ان سير حوادث التاريخ ، كما يحلله مثلاً

- بارناف - قبل الثورة الفرنسية الكبرى  
كان بين ان المستقبل للبورجوازية التي تملك ،بالاضافة  
الى الالات ، والتقنيات الجديدة ، وقوى الاقتصاد  
الحاسمة ، وبمثابة تتويج لهذا كله ، اكثر القوى الفكرى  
فعالية حاسمة.

اذن ، فالبورجوازية في عهد صباها لا تخاف الواقع  
مطلقاً وفلاسفتها الاكثر تمثيلاً لها ، أمثال ( ديدرو ) ،  
ودولباخ ، وهيلفيسوس . هم ماديون على نحو عميق  
وقد كان عمل مفكرها نشيداً يمجّد العلم والتقدم والنهضة  
الآلية الصاعدة .

وبعد مضي قرن من قيامها بثورتها ، أصبحت هذه  
الطبقة نفسها ، الشائخة المتداعية . أصبحت عاجزة  
عن حل القضايا التي يطرحها انتصارها نفسه .

ان التقنية الحديثة ، بنت العلم ، قد أنمت الانتاج  
الى درجة من السرعة الجامحة ؛ ولكن الانتاج بقي ملكية

خاصة لقبضة من الرأسماليين ، المغفلين المسهمين ، عاجزة  
عن توزيع الثروات المنتجة ، وفي هذه الشروط ؛ بدت  
انها تحقق شقاء الانسان بدلا من عظمته :

وعندئذ غير الفكر البورجوازي وجهته في جميع  
الميادين : ففي الاقتصاد السياسي ؛ ساد التفاؤل خلال  
مرحلة فتوة الرأسمالية . فمن ( آدم سميث ) الى  
( ريكاردو ) ، يعرض هذا الاقتصاد السياسي خصائص  
علمية ، ذلك لان الرأسمالية لم تكن بعد قد كشفت جميع  
النقائص التي يجدر بها اخفاؤها ، ولم تكن بعد قد كشفت  
تناقضاتها الداخلية ، ولا يمكن لدراسة علمية ، الا ان  
تتنبأ بخراب النظام الاقطاعي وانتصار البورجوازية  
الصناعية .

ولكن ما ان ظهرت اولى الازمات الدورية ورأى  
( سيسموندي ) فيها انها نتيجة لسريان قوانين رأسمالية  
فاذا لم يحرف الواقع ، نهض الاقتصاد السياسي ليدافع  
ضد النظام الرأسمالي .

وهذا النظام سوف يقتضي التزوير لكي يستمر  
جراحه، ولهذا السبب توقف الازدهار الرائع للاقتصاد  
السياسي البورجوازي ، بعد ريكاردو .

ولكن حين توقف ريكاردو عن التأليف، بدأ  
ماركس في المكتبة الملكية بلندن صياغة كتاب  
(رأس المال) ، وذلك هو التنادي التاريخي لمشعل  
الحقيقة .

لقد انتقل العلم من يد الى يد اخرى ، ولم يعد الفكر  
يستطيع ان يظل موضوعياً ، يعني ان يعكس الواقع  
بأمانة دون ان يشكل ذلك خطراً على النظام القائم .  
ولكن البروليتاريا ؛ بدأت صعودها التاريخي والحقيقة  
تخدمها .

وان تحليلاً دقيقاً مضبوطاً لتناقضات الداخلية للرأسمالية  
والقوانين تطورها يثبت الانهيار المحتوم للنظام الرأسمالي ،  
وضرورة نظام جديد .



لقد انقضى ، بالنسبة الى البورجوازية ، ذلك العهد الذي كان يستطيع فيه فيلسوف مثل ( كوندورسيه ) ان يشيد فلسفة للتاريخ تؤلف فيها سيطرة البورجوازية نقطة الاوج النهائية ، وحيث كان هيجل يعتبر هذه السيطرة بمثابة سيطرة للعقل الاسمي .

و لقد انقضى أيضاً بالنسبة الى البورجوازية ، العهد الذي كانت تتمنى فيه لفلسفتها انتشارا واسعا . وحيث كان ديكارت يكتبها باللغة الشعبية لجعلها في متناول الجميع ، وحيث عرفت الموسوعة الفرنسية (الانسكلوبيديا) انتشارا عظيما هائلا بالنسبة الى ذلك الزمن ، ذلك لأن الفلسفة في ذلك العهد ، كانت لها بالنسبة الى طبقة صاعدة وظيفه اجتماعية ، كان لها دور اجتماعي .

لقد كانت الفلسفة تلقي ضوءا على الافاق التاريخية لهذه الطبقة . انها كانت تقدم اساساً علمياً لصنودها . ولسوف يكون لها ، من بعد ، مثل هذه الأهمية بالنسبة

الى الطبقة الجديدة الصاعدة ؛ الطبقة العاملة ، في اللحظة نفسها التي تقف فيها الفلسفة البورجوازية « بمنأى ومعزل » عن الناس العاديين ، ولا نجد مانعا من نزعة باطنية معينة .

## ثانياً

والمرحلة الثانية من مراحل الفلسفة البورجوازية تبدأ حوالي سنة ١٨٤٨ . فالطبقة العاملة حتى بعد سحقها عقب ثورة حزيران والمغلوبة مؤقتاً من قبل جميع القوى الأوروبية المناهضة للثورة ، قد كشفت ان سيطرة البورجوازية ليست خالدة .

فشمة طبقة اخرى تطل من أفق التاريخ . ومنذ ذلك الحين سوف يكون الأفق التاريخي للبورجوازية محدوداً . والسيطرة الطبقيّة للبورجوازية قد حكم عليها التاريخ ، الى مهلة طويلة ولا شك ، ولكنها قد حكم عليها على كل حال .

وعلم التاريخ الموضوعي العلمي ، سوف يشهد منذ ذلك الحين ، ضد البورجوازية ، وسوف يثبت ضرورة

زوال النظام الرأسمالي : ومنذ ذلك الحين سوف يجهد  
المؤرخون العاملون في خدمة البورجوازية لطمس الحقيقة  
الواقعية للطبقات وصراعها ، تلك التي كشف عنها أغسطين  
تيرى ، وتيرس ومينيو .

وليس التاريخ العلمي وحده هو الذي يضع موضع  
البحث سيطرة البورجوازية . وإنما هو العلم نفسه .  
ان قوانين التحول في الفيزياء ، وقوانين التطور في  
البيولوجيا تنادي بنهاية الأبدى في وجه طبقة تريد تخليد  
سيطرتها .

ان البورجوازية تفقد ثقتها بالعلم وتجهد منذ ذلك  
الحين لوضع حد لمدلول العلوم ومنعوله .

ان مذهب أوغست كونت الوضعي يعبر عن هذا  
الرعب ازاء الواقع وإزاء العلم الذي يعبر عن هذا  
الواقع . وبعد ذلك الحين ، تعين البورجوازية للفلسفة  
مهمة هي ان تبين بأن العلم لا يعرفنا الى جوهر الاشياء .  
فليس له - في زعمها - سوى مدلول تكنيكي .

وتدخل الفلسفة في عهد أزمة ، وهذه الأزمة تقدم  
من حيث جوهرها في هذا الانقطاع بين الفكر

الفلسفي ، وتطور الواقع الاجتماعي . ولم تعد  
البورجوازية تستطيع ان تسمح للفلسفة بالتعبير عن  
حركة الواقعية ، وذلك لان هذه الحركة تسير بالطبقة  
البورجوازية نحو انهيارها :

وهكذا اصبحت اللاأدرية ضرورية ، ولسوف  
تعبّر عن ذاتها في شكل المذهب الوضعي ، والمذهب  
الكانتي الجديد ، وجميع المذاهب التي تفسح للعلم  
موضعا ، على ان يبقى في هذا النطاق الانهزامي .  
وللفيلسوف مهمة هي ان يكون حارس حدود  
وعليه ان يسهر لضبط العلم في حدود معينة تماماً . ان  
يتيح التطبيقات التقنية ، هذا امر حسن ، وذلك لان  
الصناعة تقتضي ذلك . ولكن يجب ألا يسمح  
بالاجابة عن الاسئلة المختصة بالانسان ومصيره ، وخصوصاً  
فعليه ألا يتسرب الى ميدان التاريخ .

وبكلمة مختصرة ، الا يلامس الواقع الاجتماعي ،  
ألا يلامس العالم الواقعي لم تعد الرأسمالية مطلقاً في حاجة

الى الفلسفة من اجل تطورها ، وانما فقط من اجل الدفاع عنها ، فالفلسفة البورجوازية تصبح منذ ذلك الحين جامعية ، فهي م تعهدتهم غير اساتذة الفلسفة وتلامذتهم ، ولم يعد لها من عمل تقوم به سوى الدفاع ضد العلم ، ضد التاريخ ، ضد الصعود التاريخي للطبقة العاملة ، وانما يطلب فقط الى الفلسفة ان تعلن بأن الحقائق العلمية لا تتجه نحو جوهر الاشياء ، وان التاريخ ليس علماً ولا يمكن ان يطمح الى القوانين الموضوعية وخصوصاً ان المادية التي تؤكد العكس ليست جديرة باسم فلسفة .  
ثالثاً :

والمرحلة الثالثة من مراحل الفلسفة البورجوازية هي مرحلة الاستعمار ، ومرحلة الثورات البروليتارية . وثمة ثلاث وقائع تعمق في خطورة قلق البورجوازية وقلق مفكرها .

( أ ) \_ لقد تعمقت تناقضات الرأسمالية وتضاعفت ، ولم يعد انهيار النظام الرأسمالي يبدو مؤجلاً الى مهلة بعيدة ، وانما العهد ؛ عهد الرأسمالية المتعفنة ؛ ولقد أقفل

الأفق التاريخي للرأسمالية اقفالا مباشراً .

ب - وصعود الطبقة العاملة انما هو صعود عاصف محتاج والطبقة العاملة تعي ذاتها وقوتها ورسالتها القضاء على النظام للرأسمالي وثمة عقيدة هي المادية الديالكتيكية ، تلهم الطبقة العاملة وتلهم نضالها الطائر .

ج - ان العلوم تنمو نمواً شديداً محتاحاً ، وخصوصاً منذ نهاية القرن التاسع عشر .

لقد اقتضت هذه الاخطار مهات الفلسفة البورجوازية ، فينبغي بأي ثمن كان ، ان يحط من شأن العلم والتاريخ وتترع صلاحيتها لانهما شاهدان لا يحتملان ، على انحلال النظام الرأسمالي :

ويجب ان توضع المادية - وهي سلاح النضال في يد الطبقة العاملة - خارج ساحة الفلسفة ، وعداء الفلسفة البورجوازية للمنهج المادي ، وللمادية الديالكتيكية ، ليس الا وجهاً ايديولوجياً من نضال الطبقة البورجوازية ضد الطبقة العاملة ، وضد الاشتراكية .

وأخيرا فسوف لن يكفي انشاء سد ضد الموجه  
الصاعدة ، موجة الحقائق العلمية والتاريخية ، بل يجب ،  
بأي ثمن كان ، ان يقدم بوصفه صالحاً لحل القضية  
الجمهوريه ، قضية علاقات الانسان بالكون والحياة  
فيجب ان يتكرر شكل للمعرفة لا يكون هو العلم ،  
يعني ان تخلق خرافة ، والبورجوازية لا تتشدد في  
صفة هذه الخرافة .

ولقد كانت هذه الفلسفة البورجوازية في زمن  
حداتها ، مادية ، كانت تمجد العقل والانوار ،  
ولكن بعد مرور مائة عام ، هاهم رجال الدولة  
فيها ، ورجال المال ، وقد طغت عليهم الازمات الداخلية  
للنظام الرأسمالي ، وأقلقهم صعود البروليتاريا الذي  
كشفت عنه (عامية) باريس ، بدأوا يتحدثون عن  
تقييد (بروميتوس العلم) ، وفي الوقت نفسه يجد هذا  
التشاؤم تعبيره الفلسفي ، وهو الذي على طرف  
النقيض من تفاؤل الانسب كلوبيديين .

وبدلاً من تمجيد العلم والعقل وقدرتهما العليا  
الظافرة المسيطرة، ها هو «برغسون» يحقر الذكاء  
العامل عمل الآلة، وها هو «بوترو» يبذل أقصى جهده  
للعثور على ثغرات من «غير لازم الحدوث»، في  
قوانين الطبيعة لافساح مجال للخوارق والمعجزات،  
ولاشييه يبحث للاستدلال العلمي عن أساس صوفي،  
في حين ينادي برونتيير مع المنادين «بافلاس العلم»  
وذلك في اللحظة نفسها التي يحقق فيها العلم اعظم  
انتصاراته واحسمها.

والجميع يلغون معاً المادية، أو يحاولون تجاهلها، هذه المادية  
التي كانت في الترن الثامن عشر مفخرة البورجوازية الصاعدة.  
وهكذا يحدث كل شيء، كأن هذه الطبقة قد استخدمت المادية  
للاستيلاء على الحكم، والمثالية للاحتفاظ به.

ولكن خط السير هذا، للفلسفة البورجوازية  
يعرض ايضاً وجهاً آخر، إذ لا يكفي نفى موضوعية  
قوانين العلم منذ اللحظة التي يحكم فيها الواقع على  
الطبقة البورجوازية ونظامها الرأسمالي، بل يجب ايقاف



حركة التاريخ ، او كبحها على الاقل . وهذا يعني انه لا يكفي انكار المادية ، بل يجب ايضا انكار الديالكتيك يجب ان يفسر فلسفيا ان العالم كما هو ، مع بعض التعديلات الطفيفة عند الضرورة القصوى ، يطابق حقيقة ابدية .

حين يقول التاريخ لطبعة : ( يجب ان تموت ) ، ترتفع صرخة فوست : « قف لحظة » ، انك في غاية الجمال . وعندئذ : يحاولون القاء موشحات غيبية لتدير هذه الابدية ، ويسمح لهم حبس حركة الحياة وتجميدها في الابدية الميتة لمذهب فلسفي ، ويسمح لهم فصل الفكر عن الواقع وجعله العوبة من الاعيب الاقتناع على طريقة « الوضعيين » ، ويسمح لهم بحصر العقل في اسوأ ضروب المذهب الذاتي المتعلق بالنجاح ، على طريقة القائلين بفلسفة الذرائع .

جميع هذه الضروب سوف تستقبلها احسن

استقبال الطبقة التي تنحدر عن مسرح التاريخ ، ذلك  
لان فكراً كهذا لا تتشابهك أسنانه ، ولا يترابط محرکه  
مع التطور الملموس للتاريخ ، ويبقى بالتالي غير مضر  
بالنظام الذي يموت .

لقد قبلت البورجوازي وما تزال تقبل ، بالتسامح نفسه  
جميع الخرافات التي تراعي الشروط التي اشرنا اليها ،  
وللحظ من شأن العلم والتاريخ ونزع صلاحيتهما ،  
استقبلت البورجوازية استقبالا لانباء اسرة واحدة  
هي اسرتها لاشلييه وبوترو ، اللذين استنجدا بالصوفية  
المسيحية ، على حد سواء مع نيتشه وترهيته الوثنية ،  
وكما استقبلت حدس برغسون اللاعقلي ، ومذهب (الان)  
العقلي الزائف ، ووجودية غبريال مرسيل المسيحية  
وكذلك وجودية سارتر ، ووجودية ميرلوبونتي الملحدتين  
ولا يدخل في نطاق دراستنا ان نفحص بالتفصيل  
هذه المراحل المختلفة للفلسفة البورجوازية ؛ واندفاعها  
في البدء للاستيلاء على العالم وتقهرها المذعور نحو

اللا أدوية ، وهما حر كتا انبساط وانكماش لفكر طبقة  
في عهد صعودها التاريخي حين كانت تخاطب جميع  
الناس ، وفي عهد تدهورها حين اصبحت جامعية  
سكولاستيكية .

ولسوف ندرس فقط الاسباب التي تقود الفلسفة  
البورجوازية الى تكريس جهودها لنظرية المعرفة  
بصورة خاصة .

وسوف ندرس آلية التزوير في الفكر العلمي .  
ولسوف نختار مثالا نموذجياً لهذا الموقف وهو العقيدة  
الوحيدة التي تبعد لتخطي جدران المدارس وهي :  
الوجودية



# ميرلوبونتي

## وفلسفة الظاهرات

يقدم لنا مؤلف ميرلوبونتي « علم ظاهرات الادراك الحسي »  
من الوجودية ، العرض الاكثر تمتعاً بصفة المذهب .

وواضح ان اهداف ميرلوبونتي هي اهداف كل الفلسفة  
البورجوازية في عهد الرأسمالية المتعنتة في عهد الاستعمار :

اولاً :

الخط من شأن العلم ونزع صلاحيته من حيث هو معرفة قادرة  
على حل القضايا الجوهرية للحياة .

ثانياً :

ان تعرض ضرباً من ضروب المعرفة بوصفه ذا قيمة مطلقة  
- ولا يكون هو العلم - اللأدرية والحراقة . هذان هما قطبا  
هذا الفكر .

يذكرنا ميرلوبونتي منذ الصفحة الاولى من مقدمته ، بالتعليم

الأول من تعظيم علم الظاهرات وهو « انكار العلم » . ويرسم صورة أولية لمنهجه كله

« انا لا استطيع ان افكر بذاتي بوصفي جزءاً من العالم . . . كل ما اعرفه من العالم ، حتى بوساطة العلم ، انا اعرفه من نظرة خاصة بي او من تجربة عن العالم ، بدونها لا نستطيع فهم العلم ان تعني شيئاً » .

ولسوف نجد خلال الكتاب كله هذا المم الذي يخلق بالميولوجوتي : ليس العلم الا افكاراً وتشويهاً لمعرفة اغنى واكمل وبالتالي اصح . وهذه المعرفة هي - في زعمه - المعرفة التي يقدمها علم الظاهرات ، وهو خرافة جديدة مكلفة بان نحل محل « الحدس » الذي كانت تقول به البوغسونية . وسوف نين كيف تبنى خرافة المعرفة « الحقيقية » . ولنكتف الآن بأن نشير بتوكيد ، الي الوجه السلي وهو « انكار العلم » . ان العدو الاول لفلسفة وجودية ظاهراتية كهذه هو « الموضوعية » ، ويقدم عنها ميولو بوتي التعريف التالي ، يقول ( ص ٤٠٢ ) :

« إن المثل الاعلى للفكر الموضوعي هو مذهب التجربة بوصفه حزمة من الارتباطات الفيزيائية الرياضية » .

ونستطيع ان نتساءل هنا لماذا حدد ميدان « الموضوعية » ،

## هكذا بصورة تخكية اعتبارية في حدود العلاقات الفيزيائية الرياضية ؟

لماذا يعرف العالم الموضوعي هذا التعريف « النازع  
منزع الآلية » ؟

ذلك لأنه يجعل الموضوعي « مثلاً للآلي ، تصبح محاكمة  
« الفكر الموضوعي » ، أسهل . وبفضل هذا الانزلاق من  
مفهوم إلى مفهوم آخر . وهذا التعريف لمفهوم الموضوعية .  
وهذا الافتقار لتعريفها يصبح من السهل اعتبار المعرفة التي  
يقدمها العلم والحس السليم غير كافية على نحو عايت . ومن  
السهل ان ينسب هذا الفقر إلى الفكرة المسبقة للموضوعية .  
فيولوبونتي يأخذ مثلاً هذا المأخذ على مدرسة سيكولوجية  
معينة يقول :

« ان العالم النفسي كان ما يزال يعتقد بأن الوعي ليس إلا  
قطاعاً من الوعي ، فعزم على استكشاف هذا القطاع كما  
يستكشف عالم الفيزياء قطاعه . كان يحاول وصف معطيات  
الوعي ولكن دون أن يضع موضع البحث ، الوجود  
المطلق للشيء حول الوعي .

وبكلمتي : « العالم والحس السليم » ، التوكيد على  
الكلمتين مني أنا - روجيه غارودي . كانت يعني ضمناً  
العالم الموضوعي بوصفه إطاراً منطقياً لجميع أوصافه وبيئته  
لفكره » ( ص ٧٢ ) .

ونضبط هنا على المصمم الحي ، ضمن جملة واحدة ،  
التبديل في المفاهيم « الوجود المطلق للعالم » و « العالم  
الموضوعي » . فلن يكون ثمة مانع خطر - في زعم  
ميرلوبونتي - من استخدام التعبيرين أحدهما في موضع  
الآخر ، إذا لم نكن بالإضافة إلى ذلك قد عرفنا العالم  
الموضوعي بوصفه العالم الآلي « للعلاقات الفيزيائية الرياضية » .  
بيد أن إثبات ميرلوبونتي كله مؤسس على هذا الالتباس ،  
فانه يكون قد هباً لنفسه الظروف الثلاثة حين يبين أن  
الوعي ليس قطاعاً من « الكائن » ، بتعريفه الكائن بأنه  
عالم النظام الآلي . ولكن دحض الآلية لا يعني دحض  
المادية . وميرلوبونتي شأنه شأن جميع المثاليين منذ مائة  
عام ، يظن أنه سحق الماركسية بدحضه « لامتري » .

ذلك لأن الغاية الأخيرة لمؤلف ميرلوبونتي هي هذه :  
« النضال ضد الفلسفة الماركسية » . وأوضح أنه أراد بلوغ  
هذه الغاية ، بما أن ثلثي استنتاجه مخصص لمناهضة الماركسية  
وهو لا يواجهها على كل حال إلا من وجهة كونها « المادية  
النارنجية » ولكن ميرلوبونتي لا يأنط أبداً كلمة « المادية »  
بصراحة ، بل هو يسميها « الواقعية » ، وهذا هنا أيضاً  
تقليد قديم من تقاليد المثالية الجامعية ، أن لا يلفظ حتى اسم  
« المادية » فعلى الجامعيين ألا يفسحوا المجال للاعتقاد بأن المادية هي  
فلسفة من الفلسفات .

فيولوبونتي لا يقول ابداً . « انني احارب المادية » ، بل  
يقول : « احارب الفكرة المسبقة الواقعية » . او يقول  
أيضاً « النظرية المسبقة عن الموضوعية » .

والحق ان هذه الفكرة هي فكرة ثابتة عند ميولوبونتي  
فهذه العبارة نفسها : « الفكرة المسبقة عن الموضوعية »  
تتردد كل عشرين صفحة ، كأنها لازمة الاغنية ، فلننظر  
اذن كيف تنظم في كتاب « علم ظاهرات الادراك الحسي »  
الحرب ضد المادية ضد هذا المفريت الذي لا يسمى .

في البدء يتعلق الامر بمحاربة المادية دون ان يعترف ميولوبونتي  
بانه مثالي ويجدد ميولوبونتي ايضاً مرة اخرى محارلته لشق طريقتي  
ثالثة لتجاوز المازق الذي يقضي اما الى المادية وإما الى المثالية .  
لقد كان هذا من قبل هو مزعم ارنست ماخ ايضاً .  
وفي سبيل هذه الغاية يستنجد ميولوبونتي « بالعودة الى التجربة »  
( ص ١١٥ ) ، ولقد كان ذلك من قبل هو مزعم  
ارنست ماخ ايضاً .

وهذا المزعم المزدوج ينكشف لنا في تحليل ميولوبونتي  
للتجربة ومنذ الصفحة الاولى من مقدمة كتابه يعين للمعرفة  
بداية اولى فعلى الفلسفة ان تبدأ بوصف « مباشر لتجربتنا  
كما هي » .

ويضيف المؤلف : دون أية مراعاة لعملية تكونها النفسية



والتفسيرات السببية التي قد يقدمها عنها العالم او المؤرخ او  
العالم الاجتماعي ، .  
ونؤكد كذا لا يؤلف فقط مسلة اعتبارية قامة ، وانما  
انقلابا فلسفيا .

« وعلى هذا النحو قطع الوعي والتجربة عن التاريخ .  
فهما بلا ماضي وبلا ترابط سياق » . وهذا هو القرار  
الذي أصدره « الظاهراتي » . فمن ابن يستمد الفيلسوف  
هذا الامتياز ، هذا الحق الالهي الذي يخوله أن يضع ضد  
العلم وضد الحس السليم ، الكون جميعه بين قوسين ؟ لا  
يقول لنا المؤلف من أين . . .

فلنتبع موريس ميرلوبونتي إلى تلك الجزيرة المقفرة  
حيث يقوم على طريقة روبنسون كروزو ، بمخلق العالم  
مجدداً ، ولكنه وهو الاكثر طموحاً من روبنسون ،  
سوف يدعي سن القوانين للعالم بأسره وبعد أن طرد  
فيلسوفنا العلم ، والتاريخ ، والحس السليم ، بوصفها أشياء  
مضايقة ، سوف يستعيد عالم الظاهرات « هذه الملامسة  
الساذجة مع العالم ، لينسجها أخيراً قانوناً فلسفياً » .

وكلمة أخيراً هذه التي ملؤها التواضع ، تضع ميرلو  
بونتي في مرتبة أسمى من هيجل براتب . لقد كان هيجل  
متوهماً فقط بأن الفلسفة تنتهي بذهبه ، أما ميرلو بونتي  
فيعتقد أنها تبدأ بعقيدته .

فقيم تقوم إذن هذه التجربة التي يبدأ معها كل شيء ؟  
طبعاً هذه التجربة تضعنا إزاء « معطيات مباشرة » كتجربة  
برغسون وتجربة ماخ . إنها « معرفة أصلية » ( ص ٥٣ ) :  
يقول ميرلوبونتي ( ص ٦٩ ) : ان اول عمل فلسفي هو  
العودة الى العالم المعاش ، وراء العالم الموضوعي : والخاصة  
المميزة لهذا ( العالم المعاش ) هي كونه متقدماً على التمييز  
بين الذات والموضوع .

يقول ميرلوبونتي ( ص ٣٣٤ ) :  
« التفكير إنما هو تلمس ما هو أصلي ، يعني الذي يمكن  
بوساطته لسائر الاشياء ان تكون وأن تخضع لفكر » .  
ويهاجم ميرلوبونتي المسئلة القائلة « بأن كل ما هو  
موجود ، موجود إما بمثابة شيء وإما بمثابة وعي ، وليس  
ثمة ما هو حد وسط بين بين » ( ص ٤٧ ) وتثور آثاره  
ضد هذا التقليد الديكارتي الذي يقضي بأن « ثمة معنيين  
ومعنيين فقط لكلمة وجود ، الوجود كشيء ، أو الوجود  
كوعي » ( ص ٢٣١ ) . ويبحث ميرلوبونتي عن نغمة مبهم  
ملتبس بين الوجود ( الصفحة نفسها ) . فما هو إذن  
هذا العالم المعاش ؟

ومن « يعيشه » بادية بده ، سوى عالم الظاهرات ؟  
ذلك لأن هذا العالم هو - في رأي ميرلوبونتي - من  
عامة البشر ومن أصحاب ( الحس السليم ) كما يقول مؤلفنا ،  
وسوف يدهش كثيراً حين يعلم أنه عاش « هذه » التجربة  
الأصلية ، حيث لا يتميز الانسان عما يوجد خارجاً عنه  
وبدونه .



« انما نجهد لوصف ظاهرة العالم يعني ولادته بالنسبة اليها  
في هذا الحقل ، حيث كل ادراك حسي يضعنا مجدداً وحيث مازلنا  
وحيدين ، وحيث الآخرون لا يظهرون الا فيما بعد ، وحيث  
المعرفة وخصوصاً العلم يضيق مجال النظرات الفردية ويجعلها كلها  
في مستوى واحد » .

### ثانياً :

والهم الثاني ليرلو بونتي هو محاولته ان يثبت ان بهذه التجربة  
« تختل » التعارض بين المادية والمثالية .

ان المثالية يجعلها الخارج متضمناً . ٩

والواقعية ( تقرأ : المادية - ر. غ. ) باخضاعي لفعل  
سبي . وانما يزيغان للعلاقات الموجودة بين الخارج والداخل ،  
ويجعلان هذه العلاقة غير ممكنة الفهم ( ص ٤١٧ ) .

وان التجربة الاصلية لعلم الظاهرات نجهد لمعرفية هذه  
العلاقات محوياً بارهاً : « ماذا عندنا ، اذن في البداية ؟ »  
ليس عندنا معطى متعدد مع ادراك تحليلي ، يحويه ويمتنازه  
من ناحية الى ناحية وانما عندنا حقل ادراكي حسي معين ،  
خلفيته مؤلفة من العالم . فلا الشيء ولا الذات لهما موضوعين  
وخصماً ( ص ٢٧٥ ) وهذه التجربة الاولى هي خليط اصلي  
من الانا ومن العالم ، وهذا ما عمدته الوجودية باسم  
( الكينونة في العالم ) .

هنا نحن في صميم السر . فتغيير بسيط في الكلمات له  
فاعلية « حل » جميع القضايا . وانما لان الكينونة في العالم  
هي نظرة سابقة للموضوعية نستطيع ان تميز عن كل حركة  
تطور تصاغ بضير الغائب - هو يعرف وعن كل  
كيفية .

وكذلك عن كل « انا مفكر » ، وعن كل معرفة  
مصنوعة بضير المتكلم - انا أعرف - ولان الكينونة في  
العالم نستطيع ان نحقق الارتباط بين النفسي والوطني  
( ص ٩٥ ) .

وهكذا على الرغم من الحس المشترك الطيب ، وعلى  
الرغم من العلم والتاريخ انت تطلق اسم التجربة على  
خليط من الانا والعالم ، وتعتمد هذا باسم ( الكينونة في  
العالم ) وتعلن بانك تخطيت المثالية والمادية . واليك من  
خلال نصوص ميرو بوتي نفسه ، مراحل هذه العملية التي تبدأ  
تخط الى ترجمتها بلغة واضحة عادية .

( ص ١٦٦ ) . « ان الحقيقة الاولى هي حقاً - انا  
أفكر - ولكن بشرط ان يفهم بذلك - انا لذاتي بكوني  
العالم - » .

( ص ١٦٧ ) الداخل والخارج لا يمكن ان يتفعلا .  
العالم هو تماماً في الخارج وانما تماماً خارج ذاتي .

وتسلي الترجمة بلسان «ظاهراتي» . اذا كانت الذات موضوعة وحتى لو لم تكن الا مجرد امكان لتكون موضوعة ، فذلك انها لا تحقق الا بكونها في الواقع جسماً ، وبدخولها بهذا الجسم الى العالم . فاذا كنت عند تفكيري في جوهر الذاتية ، اجدتها مرتبطة بذاتية الجسم وذاتية العالم ، فذلك لان وجودي كذاتية لا يشكل الا شيئاً واحداً مع وجودي كبعد ومع وجود العالم » .

واخيراً في ( ص ٤٩١ ) - العالم لا يمكن فصله عن الذات ولكن عن ذات ليست شيئاً آخر سوى مشروع للعالم ، والذات لا يمكن فصله عن العالم ، ولكن عن عالم هو نفسه الذي يطلقه الذات هي كينونة في العالم والعالم يظل ( ذاتياً ) بما ان تركيبه ومفاصله توسمها حركة تعالي الذات ، فنحن نكتشف اذن مع العالم بوصفه مهذاً للجميع الدلالات ، ومعنى لجميع المعاني ، الوسيلة التي بها نتخطى لعاقب الواقعية والمثالية -

على هذا النحو ، حسب رأي ميرلوبونتي : يتحقق تخطي المثالية والمادية ( يعني الواقعية كما يعبر ميرلوبونتي ) ، ولا فائدة من البحث عن اي تبرير كائناً ما كان . إذ يكفي أن يرفض مسبقاً كل نقد بهذه الصيغة النهائية : لا يمكن الوصول الى علم الظاهرات إلا بالطريقة الظاهرانية » ( المقدمة ص ٢ ) .

ومع ذلك فالتساءل ما إذا لم يكن هذا التخطيط تخطيطاً  
لفظياً محضاً ، كيف بدأت الأشياء ؟

إن ميرلو بونتي قد تركز بدون مقدمات دفعة واحدة  
في الوعي ، بل إنه يحا الآثار خلقه مفكراً أنه مثالي .  
يقول في مقدمته ( ص ٣ ) - هذه الحركة متميزة كل  
التميز عن العودة المثالية إلى الوعي - وفي موضع ثالث  
يقول ( ص ١٩٤ ) - ليست القضية هي قضية تسيير  
الوجود البشري على رأسه -

ما قيمة هذه الأفكار ؟ يعرف ميرلو بونتي المثالية  
تعريفاً ضيق الحد ، فهو يحصر المثالية حصراً اعتباطياً في  
الشكل الكانتي . إن وحدة الوعي هي معاصرة لوحدة  
العالم وهي التي تخلقها . وعلى هذا يجيب ميرلو بونتي ( العالم  
ماثل كائن قبر أي تحليل يستطيع أن أقوم به له ) ( ص  
٤ ) ، ولكن إذا كان العالم قبل أي تحليل يستطيع أقوم به  
عنه فهو ليس موجوداً في رأي ميرلو بونتي ، قبل الوعي  
الذي عندي عنه . وهذه هنا مثالية محضة :

كشف لينين عام ١٩٠٨ القناع عن مثالية ماخ  
وأفيناريوس اللذان كانا يدعيان الدعوى نفسها التي يدعيها  
ميرلو بونتي تخطى المثالية والمادية .

ماذا كان يقول أفيناريوس ، مثلاً . كان يقول : ( إن  
الإنسان والبيئة هما دائماً معطيان معاً ، وليس ثمة من أي

وصف كامل لما هو معطى يستطيع أن يتضمن بيئة بدون  
إنا نكون هذه البيئة خاصة به ، على الأقل بدون الإنا  
الذي يصف الشيء المعظم .

على هذا النحو كان وصفه للتجربة . إن ميرولو بونتي  
لم يغير شيئاً جوهرياً في هذه القضية - حتى في التعابير  
تقريباً - وبدلاً من « وصف » قال « علم الظاهرات » ،  
وبدلاً من « الإنا والبيئة » قال « الكينونة في العالم » ،  
وبدلاً من ( التناقض منذ الأساس ) بين الذات والموضوع  
قال ( الذات المقدر عليها الكينونة في العالم ) . ولكن جوهر  
القضية ، المعبر عنه بلغة واحدة ، مماثل عند أفيناريوس  
وميرولو بنتي . وهذا ( الجوهر ) إنا هو جوهر المثالية  
الذاتية نفسه .

يقوم ميرولو بونتي اليوم ، بوصفها عقيدة تدشن عهداً  
جديداً في الفلسفة ، عقيدة تعطي ( أخيراً ) شرعة فلسفية للعالم ،  
الموضوعات نفسها التي كان يستخدمها أفيناريوس عام ١٩٠٨  
التي يزعم هذا المزعم نفسه .

ومصيبة ميرولو بنتي ، وكذلك مصيبة أفيناريوس هي أن  
الفرض الذي كنا يزعمان فيه ( تخطي ) مشكلة ( المثالية أو  
المادية ) ، قد سبق أن استخدمها كفرض للمثالية الذاتية ،  
فيخته عام ١٨٠١ ، وبركلي عام ١٧١٠ . يذكر لينين في



كتابه ( المادية ومذهب النقد التجريبي ) ( ص ٤٥ - ٤٦ ) نص  
فيخته ( المسمى ) عرض نير موجه الى الجماهير الواسعة لجوهر  
أحدث فلسفة ) . ويستخدم فيخته الحوار والقارىء الذي يضع  
الاسئلة على لسانه مادي على نحو ساذج او ( واقعي ) كما  
يقول ميرلو بونتي ، وافيناريوس وآخرون .

يقول فيخته : ( يجب ان يكون ثمة نظام للأشياء ، ومن  
هذه الاعتناء يجب استنتاج الوعي ) ، ولكن هذا يتدخل  
الفيلسوف لدحض هذه الفكرة المسبقة عن الموضوعية ،  
لدحض وهم الموضوعية ، كما يعبر ميرلو بونتي وللاستبعاد  
( بالوعي الحقيقى ) كما يقول فيخته ( وبالطريقة الظاهرانية ) ،  
كما يقول ميرلو بونتي .

اسمع فيخته يقول :

« هل ثمة شيء يبدو في ذاتك او امامك عن غير  
طريق الوعي الذي تدركه به او الا من خلال هذا  
الوعي ؟ »

لا تجهد اذن ، للخروج من ذاتك لتحيط باكثر بما  
نستطيع بعني الوعي والشيء ، الشيء والوعي ، او بتعبير  
اصح ، لا هذا ولا ذاك كلا بمعزل عن الآخر . وانما  
نستطيع فقط الاحاطة بما ينحل بعدئذ ، الى هذا وذاك .

وبتعبير آخر ما هو على نحو مطلق ذاتي . موضوعي ،

موضوعي - ذاتي .

ولنقرأ الان ما كتب ميولو بولتي ( ص ٢٧٠ ) :  
« ان الطبيعة بكاملها هي اخراج لحياتنا الخاصة ، او حياة  
مخاطبتنا في نوع من الحوار . هذا هو السبب الذي لا  
نستطيع من اجله عند آخر تحليل ان ندرك شيئاً لا يكون  
مدركاً حسيّاً ، او يمكن ادراكه حسيّاً ، وكما كان  
يقول بركلي ، حتى الصحراء التي لم يزرها اي بشري  
مطلقاً لها مشاهد واحد على الاقل ، وذلك هو نحن انفسنا  
حين نفكر بهذه الصحراء ، يعني حين نقوم بالتجربة الذهنية  
للادراك الحسي . الشيء لا يمكن ابداً ان يفصل عن شخص  
ما لكي يدركه حسيّاً . انه لا يستطيع ابداً ان يكون  
شيئاً في ذاته ، ذلك لان مفصلاته وتحركاته هي نفسها  
مفصلات وتحركات وجودنا ، ولانه موضوع في طرف نظرة  
اليه ، او في نهاية تجربة حاسية ، هي تمنعنا تضيي عليه  
انسانية .

ومن وجهة النظر هذه ( وفي هذا المثل ) ، كل ادراك  
حسي هو اتصال او استعادتنا أو اكالتنا لمقصد خارجي  
اغريب ، أو على العكس ، اكالتنا الى الخارج لقوا  
لادراكية الحسية ، تزاوج جسمنا مع الاشياء .

واذا لم نكن قد تنبها الى ذلك من قبل ذلك ، فاما

لان دعينا للعالم المدرك حياً قد جعلت صعبة من قبل  
الافكار المسبقة للفكر الموضوعي ووظيفتها الدائمة ان تود  
جميع الظاهرات التي تشهد بانحداد الذات والعالم ، وان  
يستبدل بها الفكرة الواضحة فكرة الشيء بوصفه شيئاً في  
ذاته ، وفكرة الذات كالتقاطعة وعي . انها تقطع اذن  
الروابط التي تجمع الشيء والذات المتجسدة .

ان التقارب هنا ذو مغزى كبير فهو يبين ما يوجد من  
مشترك بين بركلي ، وفيخته ، وأفيناريوس ، وميرلوبونتي  
وهو التأكيد بأن ليس ثمة وجود بدون الوعي وهذا هو  
التعريف الذي تقول به المثالية ضد المادية التي تؤكد  
العكس .

ان الالغاء الشهير للتناقض بين المادية والمثالية بواسطة  
الكلمة الصغيرة « التجربة ( ١ ) » ، يتبين انه خرافة .

هكذا كتب لينين عام ١٩٠٠ ( ٢ ) وهذا القول يصح  
ضد ميرلوبونتي ، كما يصح ضد أفيناريوس . انها بزعمهما  
تخطي المثالية والمادية ، انما يريدان ان يردونا الى المثالية  
الذاتية وحدها وبكل بساطة .

- ( ١ ) ما هو معطى ليس الشيء وانما هو تجربة الشيء  
ميرلوبونتي ؛ علم الظاهرات - ص ٣٧٦ .  
( ٢ ) المادية ومذهب النقد التجريبي - ص ٤٩ .

ان القضية المثالية القديمة القائلة ( بترايط ) الذات والموضوع  
هي القضية الاساسية ( اعلم ظاهرات ) الادراك الحسي .  
« ان وعي العالم ليس مؤسساً على وحي انا » ، وإنما  
هما متعاصران تماماً بالضبط ( ص ٣٤١ ) او أيضاً « الشيء  
هو ما يترايط مع وجودي » ( ص ٣٦٩ ) او الشيء والعالم  
لا يوجدان ، إلا من حيث هما معاشان من قبلي ، او من  
قبل ذوات مثلي ( ص ٣٨٤ ) .

ويبيدي ميولو بونتي دهشته ( ص ٤١٢ ) قائلاً :

( إذن فنحن قد حملنا الى المذهب الذاتي الفردي ) .  
هذا اكيد اذ كان العالم وانا ، ليسا موجودين الا احدهما  
بالآخر ، فالشمس لا تكون موجودة الا بواسطة عيني عيني  
لكي تراها .

وميولو بونتي لكي ينجو من هذه الخطوة الخطأنة ،  
من هذه الذاتية الفردانية المضحكة ، التي لا ينجو منها  
اي شكل من اشكال المثالية ، يستعد بكل بساطة ،  
أوث الحجج عند ( اللامادية ) للتي كان ينادي بها بركلي .

اليك ما يقول ميولو بونتي ( ص ٤٩١ ) :

( ماذا يريدون أن يقولوا بالضبط ، بقولهم ان العالم قد  
وجد قبل الضائر البشرية ؟

يريدون القول مثلاً بأن الارض انبعثت من سديم أولي

حيث لم تكن عناصر الحياة قد تجمعت بعد ، ولكن كلا من هذه الكلمات ، مثل كل معادلة من معادلات الفيزياء تفترض مسبقاً تجربة لنا بالعالم سابقة للعلم ، وهذا الرجوع الى العالم المعاش يسهم في أن يؤلف ماله من دلالة ذات قيمة فليس ثمة شيء مطلقاً يجعلني أفهم ابداً ، ما يمكن ان يكون سديم لم يره أحد .

ان سديم لا بلاس ليس وراعتاً ، في أصولنا ، انه أمامنا في العالم الثقافي . ومن جهة أخرى ، ماذا يريدون ان يقولوا ، حين يقولون ان لبس ثمة عالم بدون كينونة في العالم انهم يريدون بذلك أن العالم يؤلفه الوعي وانما ان الوعي يكون موجوداً دائماً عاملاً في العالم .

ان فظاعة تأكيدات كهذه تبين الى أي حد لا مرد لها محتومة المشكلة التي كانوا يزعمون أنهم تخطوها : المادية او الذاتية الفردية .

ان التأكيد المثالي - لا موضوع بدون ذات - يحصر ميللوبونتي عند هذا الحد الذي لا خلاص منه : « لبس ثمة ما يجعلني مطلقاً أفهم ما يمكن ان يكون سديم لم يسبق ان رآه انسان قط » . كأن هذا ليست هي حالة أكثر السدم . وكان الكوكب نبتون لم يوجد مطلقاً قبل العالم لوفرييه ، او الجراثيم لم توجد قبل باستور ا

وميرلو بونتي يزيد من خطورة حالته فيعمم هذا  
المذهب الذاتي الفرداني ، فيصرح بوقار ( ص ١٢٥ ) ،  
وفي نهاية الامر ليس للكوجيتو الديكارتي من معنى الا  
بكوجيتي انا الخاص . ويعود ليرود في خصوص  
التاريخ الذي لا يمكن طبعاً حين ننظر اليه من هذا الافق  
ان يكون له معنى آخر غير المعنى الذي اعطيه له .

ان ميرلو بونتي يساوي في المثالية حتماً ، بروكلي  
وفيخته ، ونستطيع ان نطبق عليه صيغة سارتر في « الكينونة  
والعدم » . « كل شيء يجري كما لو ان العالم والانسان ،  
والانسان في العالم ، لا تتوصل الى ان تحقق الالهة فاشلاً »

ان التعريف المدعي الذي يقدمه ميرلو بونتي عن الوعي  
هو حقاً التعريف الذي يعطى عن الاله فاشل فييرلو بونتي  
يقول :

« إن جوهر الوعي هو انه يعطي ذاته عالماً او عوالم  
( ص ١٥١ ) . يعني ان يكون امام ذاته نفسه افكاره  
الخاصة بثابة اشياء » .

وما يميزه من المثالية التقليدية انه نحلي عن الجهاز العلمي  
الذي كان يؤلف عظمة الابنية عند فيلسوف مثل ديكارت  
او هيغل .

يقول ميرلو بونتي ( ص ١٢ المقدمة ) :

« العالم ليس هو ما افكر به ، ولكنه ما أعيش »  
ومعه فقدت المثالية ثقافتها العقلية ، والامر يتعلق هنا  
بمثالية متقهرة .

ان المسئلة الموجودة عند نقطة البدء نصف المسترة ،  
هي مثالية محض يبقى علينا أن نرى كيف يتطور  
المذهب عند ميرلو بونتي .

لقد رأينا ان ميرلو بونتي قد تركز دفعة واحدة في  
الوعي دون ان يبحث لا عن تاريخ نشوئه ، ولا عن  
« ارتباطاته السيية » . وهو لا يستطيع أن يتقدم الا  
بقيامه ببيان مفصل لهذا الوعي ، لهذه « التجربة » . وسوف  
تكون طريقته مثالية كالمسئلة الاولى .

« في الصفحة ٤٩٥ » :

« ان حل جميع قضايا التصعيد يوجد في كثافة الحاضر  
الما قبل الموضوعي ، حيث نجد جسدیتنا ، واجتماعیتنا ،  
والوجود المسبق للعالم ، يعني نقطة التمهيد والبدء « بالتفسيرات » ،  
في ما عندها من شيء مشروع ، وفي الوقت نفسه أساس  
حريتنا . وهذه التجربة الاصلية هي منبع عجيب الفزارة ،  
وهذا الفن نفسه يجعلنا مرتابين .

ما هو اللواب الخفي الذي سوف يؤمن كل تطور ( علم  
ظواهر الادراك الحسي ) ؟

ان التحليل منطلقا من الوعي ، يبدأ بتحليل للوعي ،  
انه اولا تحليل سيكولوجي . وهذه السيكولوجية هي  
من نوع خاص .

يقول ميرو بونتي ( ص ٧٢ ) ان عالم النفس بالتخاذه  
موضوعا لتفكيره المذهب الجشطي ، يقطع صلته بمذهب علم  
النفس . فالموقف التصيدي اصبح منضمنا فعلا في الارصاف  
التي يقدمها عالم النفس منها كانت قليلة الامانة .

ان الوعي من حيث هو موضوع للدراسة ، يقدم لنا  
هذه الخاصية وهي أنه لا يمكن تحليله حتى بصورة ساذجة ،  
دون ان يجرنا الى وراء مسلمات الحس المشترك السليم .

فالعالم بأسره لم يعد الا منطقة من مناطق الوعي : فاستبار  
مضمون الوعي سوف يقدم لنا إذن ، جميع أسرار العالم .

ويضيف ميرو بونتي ( ص ٧٣ ) ، « ان علم النفس هو  
دائما محمول في خاتمة امره الى قضية تكون العالم » . وانما  
بمقتضى هذه المبادئ استطيع ان اكتشف سديم لا بلاس  
في حنية صغيرة من حنايا وعيي !

فما هي اذن نقطة البدء في استكشافنا ، وما هو سيكون  
دليلنا ؟ ما هو المعطى المباشر ؟

يصدر ميرو بونتي ( ص ٧٠ ) قراره قائلا :  
« ان انفعالي - انطباعي منذ الآن ، سوف يكون مثبثا



مباشراً : ليس تأثير الشيء الذي لا يشكل الا شيئاً  
مع الذات ، وانما سوف يكون هو متجه الاجزاء وتركيبها  
وانتظام الاجزاء .

ان علم النفس الجشطالي هنا يحول الى علم لا يتكون فكل  
شكل ، وكل دلالة ، ترفع هنا الى مرتبة الجوهر ، وانما  
بمقتضى القدرة المطلقة التي قلدها عالم الظاهرات لنفسه .

فالوعي معروف بالنسبة الى الجشطالية « من حيث أنا وعي  
يعني من حيث شيء له معنى عندي . . . » . هكذا يقول  
ميرو بونتي في مقدمته ( ص ٦ ) .

ولما كان الوعي يحوي العالم ، فان هذه الدلالات ،  
تصبح حقيقة الحقائق ، وسوف يعرف الوجود تماماً كالوعي :  
فهو كما يقول لنا ميرو بونتي ( ص ١٩٨ ) . العملية نفسها  
التي بها عالم مالم يكن له معنى يتخذ معنى .

وبتفصيل الوجود والوعي على هذا النحو ، من قهامة واحدة ،  
فان مشكلة علاقتها سوف تجعل سريعاً ، والحقيقة انما ان  
المؤلف حلها بضربه صفحاً عنها ، وحلها في الاتجاه المثالي  
المحض الذي اقتضته المسلمات الاولى المثالية التي وضعها  
المؤلف لنفسه .

فحين استبعد الفكرة المسبقة ( وهم الموضوعية ) للموضوعية  
أصبح الواقع المحسوس يفهم بواسطة نوع من التملك عندما

جميعا تجربته حين نقول اتنا ( وجدنا ) ، الارنب في اوراق أحجية ( ص ٧٠ ) ، وهكذا تصبح الفلسفة حسب رأي ( علم ظاهرات الادراك الحسي ) ، فن حل الاحاجي ، فن اكتشاف ، أرانب صغيرة بين اوراق الاحاجي ، وهو شغل يتمتع لطيف ، ولا ضرر منه بالتأكيد .

والنظام السائد يجد فيه غايته وان يتردد في التصفيق لمفهوم للفلسفة يبلغ هذا الحد من التساهل الوديع ، هذا المفهوم الذي اخطأ بعدم تفكيره فيه فيلسوف من امثال ديكارت ، وديدرو ، وكارل ماركس . فلو فعلوا لكانت مضايقاتهم مع السلطات اقل . هذه السلطات التي كانت توى بدون عطف ، نو فلسفة تعين لذاتها مهمة وهي : ( ان نجعلنا سادة الطبيعة ومالكها ) . وان تغير العالم .

ولكن فلنعد الى أرنبنا الصغير المحتبأ بكل تواضع بين الاوراق ، ولنقم « بالعودة الى الشيء الظاهري » ( ص ٧٠ ) فسوف ننتقل من علم النفس الجشطالتي الى الفلسفة « الظاهرانية » مارين من الاحجية الى اللعب بالكلمات وميرلو بونتي يستعيد هذا اللعب بالكلمات من كلوديل ويتوج به الفصل الذي وضعه في كتابه عن الزمان .

« الزمان هو معنى الحياة ( افهم كلمة معنى بدل لونها حين نقول انجاه مجرى مائي ، معنى عبارة ، وحسبية قاشنة

حاسة الشم ( ١ ) ، كلوديل ، فن الشعر . علم ظاهرات  
الادراك الحسي ( ص ٤٦٩ ) .

ومهمة هذا اللعب بالالفاظ تأمين الانتقال من علم  
النفس الى علم الكائنات ( الاونتولوجيا ) انه من الحجة  
المتعلقة بعلم الكائنات . والواقع ان ( اتجاه ) ، مجرى  
الماء ، هو خط سير الحركة المادية . ومعنى ( عبارة من  
العبارات هو حركة من حركات الفكر ، ومعنى ( حاسة )  
الشم هو هنية من تحول حركات فيزيائية الى حركات  
نفسية وخلق هذا كله ، انما هو علم ظاهرات الادراك  
الحسي ....

والابدال الخفي لعمل داخلي بحقيقة خارجية وبالعكس .  
هذه هي آلية ( التحويل الظاهراتي ) كلها . ولتزييف هذه  
الشعوزة اللفظية فتبدو انها تحليل .

وجد ميرلو بنتي وسيطاً روحانياً وهو : الجسد .  
ان الجسد يتلقى الرسالة العجيبة وهي التغلب على التعارض  
بين الشيء والفكر بتصويره لنا الذات المدركة حياً ،  
بمثابة العالم المدرك ( ص ٨٦ )

ولكي يلعب الجسد هذا الدور ، عليه ان يخضع لعملية

( ١ ) ان لفظة sens الفرنسية تشمل بدلولاتها المختلفة جميع  
معاني الكلمات المطبوعة بحروف واضحة . ( المارب )

بحول حقيقي لا يعد ازاءه سر تحول الخبز والحمرة الى جسد المسيح الا كلعبة اطفال .

ويقول لنا المؤلف ( ص ٤٠٣ ) .

( وبديهي ان هذا يفترض ان بحول مفهوم الجسم تحويلا عميقاً . . علينا ان نعرف كيف نيزه من الجسم الموضوعي كما تصنعه كتب الفيزيولوجيا ) . فلنفحص طرائق هذه الكيمياء السحرية .

يعرف ميرو بنتسي اولاً ( التركيب الغيبي ) لجسمنا ( ص ١٩٥ ) . اولاً ان جسمي هو بالمعنى الحرفي للكلمة ، مركز العالم ) .

( ان الجسم الخاص بانسان ما هو في العالم المدلول الطبقي كالقلب في الجسم : انه يحافظ باستمرار على المشهد المنظور بابقائه حياً وهو يحيه ويغذيه داخلياً ويؤلف معه نظاماً ( ص ٢٣٥ ) .

وثمة ما هو افضل ايضاً ، فالشيء هو جوهرياً وما يترابط مع جسدي ( ص ٣٧٢ ) ، ولكن لاجتناب كل تأويل مادي بقطع ميرو بنتسي باكثر التأويل اعتباطية ، لما يسميه ( الفيزيولوجيا الحديثة ) ( - ص ٨٧ ) بقطع جذرياً احساسنا وفعالنا المنعكسة عن محرضها الموضوعي .

اليك ما يقول عن الاحاسيس ( ص ٨٩ ) .

( ان الحق المحسوس ، بل حتى حضور او غياب ادراك  
حسي ما ، ما هما نتيجتان للامر الواقع خارج الجسم ) ، ولا  
يقول لنا ميرلو بنتي في اي كتاب من كتب الفيزيولوجيا  
الحديثة ، جاء ان احساسنا بلون ما لا علاقة له باهتزازات  
المعرض الضوئي .

واليك ما يقول في الافعال المنعكسة ( ص ٩٤ ) :  
( الفعل المنعكس لا ينتج عن المحرضات الموضوعية ) .  
ونظرة خاطفة تلقيها أسماء المراجع التي اثبتنا في مؤلفه تين  
لنا في الواقع ان ميرلو بنتي لا يرجع ابداً الى  
بافلوف .

فمن جهة الاحساس كما من جهة الفعل المنعكس ،  
عند المدخل كما عند المخرج . كل الابواب مغلقة ، والجسم  
محكم رتاجه . مقطوع عن العالم الموضوعي .

وينצל هذه العزلة يستطيع الجسم ان يخضع لعلاج  
فيزيولوجي ، ولف الذاتية الفردية في نهايتها لا يبقى فيه شيء  
جسماني . وها هو مستعد لاقام رسالته ، ان يعرفنا الى  
( عقدة الجودر والوجود ) : ( ص ١٧٢ ) ، وهو حقاً  
الوسيط الروحاني او بتعبير اصح ( المعلم جاك ) . للطريقة  
الظاهرانية ، التي تقوم كما يقول لنا المؤلف ( ص ١٨٤ )  
في ( تأكيد ان كل عمل بشري له معنى ومجاول ان يفهم

الحادث بدلا من ربطه بشروط آلية . (

فالجسم في نظر ميرلو بنتي هو نوع من صاوية  
المذيعات نتيج لنا التقاط رغبات عالم حيث كل ما فيه ، في  
الواقع ، مليء بالارواح .

يقول ميرلو بنتي ( ص ٣٦٩ ) . ( ان معنى شيء  
من الاشياء يقيم في هذا الشيء كما تقيم الروح في الجسد ) .  
وان يكون للكائن الحي جسم معناه الاتصال بوسط معين ،  
والاختلاط ببعض المشروعات والاندماج فيها باستمرار (   
( ص ٩٧ )

او ايضا ( يعبر الجسم عن الوجود الكلي ، لا بما  
انه مصاحبه الخارجية ، وانما لان الوجود يتحقق فيه ، وهذا  
المعنى المتجسد هو الظاهرة المركزية التي الجسم والروح ،  
الرمز والدلالة ، هي هينهاها المجردة ( ص ١٩٣ ) .

وهنا نقرب من النتيجة الاخيرة : الجسم هو الوجود  
الكلي ، ولكن الجسم انما هو انا ذاتي ، ان الذاتية بتعبيرها  
الافضل . وما قد اعدت بنقل تحويل الجسم ، الى المثالية  
الذاتية .

( يقول ميرلو بنتي ما يثبتنا حول هذه النقطة ( ص ٤٦٧ )

( ان وجودي ذاتية لا يؤلف الا شيئا واحدا مع  
وجودي كجسد ومع وجود العالم ) .

لقد افقت الدائرة ، لقد انطلقنا من المثالية الذاتية ، وبعد ان اتبعنا الجسم في جميع تحولاته وتناسخاته ، عدنا الى المثالية الذاتية ولكن الى شكل منحط من اشكال المثالية الذاتية ، أليس للعالم من وجود الا بي ، ولكنه مأهول لا بالافكار الواضحة وانما بالنيات والمعاني ، وهذه عودة الى نخط من الانيسم الذممة .

ولكي نقيس مبلغ انحطاط هذه المثالية التي لم نعد نجرؤ ان نذكر اسمها ، يكفي ان نرى كيف يضع ميروبنتي نفسه بالنسبة الى ديكارت وكانت .

ان ميرو بنتي مضطر اولا بسبب حاجات قضيته ، الى ان يعطي « الكوجيتو » ( انا افكر ) تأويلا مغلوطاً من الناحية التاريخية وفتيراً من الناحية الفلسفية . يقول ميروبنوتي ( ص ٤٢٣ ) :

« ثمة حقيقة نهائية في العودة الديكارتية للاشياء أو للافكار الى الأنا . وتجربة الاشياء المتعالية نفسها ليست ممكنة الا اذا كنت احمل وكنت أجد في ذاتي مشروعها ، وهنا ايضاً يقع التباس الكلمات هلمية عجيبة .

اولاً :

تمت غطاء ( الانا ) يضع ميروبنوتي بدلا من « الأنا » الديكارتي المعجون عجباً بالافكار الواضحة « أنا » علم للظواهرات مشاريعه ، وثبانه ، ومعانيه .

## ثانياً :

« العودة المزعومة إلى « الأنا » ليست عن ديكارت إلا  
« الهنية المثالية » من فكر سوف ينتشر في العالم الموضوعي  
في حين أن هذه العودة في « علم ظاهرات الإدراك الحسي »  
هي نهاية بنزع إلى إذلال « العالم الموضوعي » وأنكاره ، هذا  
العالم الموضوعي ذاته الذي ديكارت يعطي الفلسفة مهمة هي  
السيطرة والاستيلاء عليه .

ومن ناحية ثانية ، صحيح أن فلسفة ديكارت تعرض  
علينا تسوية بين المثالية والمادية ، ولكن هذه التسوية تصبح  
عند ميلوبونتي تشويشاً خالصاً ..

يقول ( ص ٣٤١ ) : ان الكوجيتو الحقيقي ليس هو  
خلوة الفكر بفكر الفكر : انهما لا يلتقيان إلا من خلال  
العالم ) وسبق أن أعلن في مقدمته ( ص ٨ ) : الكوجيتو  
انه يحذف كل نوع من انواعها المثالية ، باكتشافها ذاتي بوصفي  
كائناً في العالم .

إن وجهتي نظر ديكارت : وجهة نظر الكوجيتو ، يعني الفكر  
الذي يجهد ليدرك ذاته - وبتعابير أخرى : النظرة المثالية -  
ووجهة نظر العالم الموضوعي يعني :

عالم موجود خارج فكري ، وليس في حاجة الى فكري  
كي يوجد - وبتعابير أخرى النظرة المادية - .



إن وجهتي النظر هاتين هما متناقضتان ولا شك ،  
وديكارت بوضعها احدهما الى جانب الاخرى إنما يقوم فعلاً  
بتسوية ولكن فضله هو أنه ميز بوضوح بين الذات والموضوع  
في حين ان ميرو بونتي يشوش جميع الافكار .

يقول ( ص ٤٩١ ) : « إن العالم لا يمكن ان يتفصل  
عن الذات ، التي ليست إلا مشروعاً للعالم ، والذات لا  
يمكن ان تنفصل عن العالم ولكن عن عالم هو نفسه الذي  
يصوره بالذات هي كينونة في العالم ، والعالم يظل  
ذاتياً . الخ ... »

ولست هذه وسيلة لتخطي المشكلة إما المثالية وإما  
المادية ( الصفحة ذاتها ) ، وإنما فقط وسيلة للخلط بينهما :  
ان خلط المفاهيم ليس وسيلة للتخطي الا بمقدار ما يكون  
السير الاعرج بالساقين وسيلة للسير القويم .

وموقف ميرو بونتي من « كانت » هو تماماً على هذا  
النحو ايضاً من الدلالة . يقول ميرو بونتي ( ص ٢١٠ -  
٢٤١ ) « إن النزعة الذهنية يمثل تقدماً في التقاطه الوعي ...  
فالعالم يصبح الشيء المترابط لفكر عين العالم ولم يبق  
موجوداً الا بمثابة عنصر مؤلف ، ومع ذلك يبقى صحيحاً  
القول بأن النزعة الذهنية هي ايضاً تقدم نفسها للعالم على  
انه جاهز مسبقاً . »

هذا هو المأخذ الذي يؤخذ على « كانت » . لقد قام

بخطوة اولى نحو المثالية - العالم المترابط بالفكر - ولكنه  
ارتكب خطأ - في زعم مؤلفنا ميرو بونتي - وهو انه لم  
يلق الى البحر بالعالم الموضوعي . وهو يأخذ على كانت انه  
يستند الى القوانين العلمية لهذا العالم الموضوعي عند ميرو  
بونتي ، بعد انكار العالم ونزع صلاحيته منه تذب  
( مقولات ) نقد العقد الخالص .

وماذا يعطينا ميرو بونتي بدلا من الاستنتاج التصيدي؟  
بانه يقوم لنا الفكرة الجشطالية البائسة ، فكرة الصورة  
والخلفية ؟ لقد افرغت المثالية النهجية بكل بساطة من نوانها  
العقلية .

ولذا الان كيف يتخلص ميرو بونتي من عدوه الرئيسي  
العالم الموضوعي ، يعني عالم الحس المشترك السليم والعلم .  
تألف العملية من مراحل ثلاث :

اولا :

مفهوم لا ادري ولاهوتي للاحاساس .

ثانيا :

نظرية مثالية للكان والزمان .

ثالثا :

غويه السببية باسم الفائية والتصعيد .

ليس الاحساس في نظر ميرو بونتي كما في نظر جميع

المثاليين صلة بين العالم الموضوعي وبيننا ، وانما هو شائنة عرض ، والغاية المتوخاة هي تبديد الواقع المدوس نجازاً والوسيلة الى ذلك انما هي الخط من قيمة الاحساس ، وتبدأ هذه العملية عند مستوى الفيزيولوجيا والملمسة المثالية تتخذ صورة الامة ، صورة الانذار النهائي ، فيصدر ميروبولونتي قراره قائلاً ( ص ١٧ ) على العالم الفيزيولوجي ان يتخلص من الفكرة المسبقة الواقعية القائلة بأن جميع العلوم تستمد من الحس المشترك السليم . وعلى العالم أن يتعلم نقد فكرة عالم خارجي في ذاته بما ان الوقائع هي نفسها توحى اليه بأن يترك فكرة الجسم بوصفها ناقلة صور

والحق أننا نستطيع النساؤل عما هي الوقائع ، التي تقدم للعالم هذا الانحاء الغريب ، والواقع الوحيد الذي ان وضع وصفاً جيداً الذي يستطيع أن يقترح علينا ، هذا النخلي ، انما هو جهل علم الفيزيولوجيا ، أو تجاهله بصورة عامة ، والفيزيولوجيا البافلوفية بصورة خاصة .

ان ازدراء كهذا هو وحده الذي يسمع بأن يؤكد ببرودة ان الجهاز الحاسي كما يتصوره علم الفيزيولوجيا الحديث . لم يعد صالحاً يقوم برؤية جهاز موصل لتلك التي كان ينسبها إليه العلم التقليدي ( ص ١٥ ) .

مساكين علماء الفيزيولوجيا أولئك الذين كانوا من السذاجة

بحيث كانوا يعتقدون ان كل اهتزاز فيزيائي معين مرقم ،  
إنما تطابقه ظاهرة نفسية احساس باللون الاحمر والازرق  
مروراً بسلسلة معينة من الظاهرات الفيزيولوجية .

إن ميرلو بونتي قد غير هذا كله لحسن الحظ ، لقد  
قضى والحق يقال على هذه السلسلة السببية ، اولاً ، الفيزياء  
- في زعمه - على خطأ ، حين تحدد الالوان والمشاعر  
تحديداً رياضياً . « الاحساس الحاصل تجربة صدمة غير  
مجهزة ( ص ٩ ) .

وهكذا رفض حكم الفيزياء ورد .

ثم يأتي دور الفيزيولوجيا ( ص ١٤٠ ) :

« لبس الادراك الحسي مديناً بشيء لما نعرف عن العالم  
من ناحية اخرى عن الموضوعات كما تصفها الفيزياء ، وعن  
الحواس كما يصفها عن الحياة .

الادراك الحسي لا يقدم نفسه اولاً على انه حدث واقعي  
في العالم نستطيع ان نطبق عليه مثلاً ، معقوله السببية ، وإنما  
كإعادة خلق للعالم ، أو إعادة تكوين له في كل هنية ،  
إذا كنا نؤمن بما عين للعالم ، بالعالم الفيزيائي (الطبيعي) ،  
بالمخرضات بالجسم كما تمثله لنا الكتب ، فإنما كان ذلك اولاً  
لان عندنا حقل ادراكي حسي حاضراً ومالي ، كأننا هنا في  
حلم . فالعالم الفيزيائي وماضيه وجسمنا والمخرضات التي

يتلقاها من هذا العالم الخارجي ، انما هي مسألة « ايمان »  
في نظر ميرلو بونتي .

ومن اجل ملائمة العالم الموضوعي ، احلوا محل المعطي  
المحسوس نسبة او علاقة ، مشكل على خلقية ، هو المعطي  
الابسط الذي نستطيع الحصول عليه ( ص ١٠ ) .

هذه هي القضية الوحيدة للنظرية الجشطالية ، وكان بني  
الصفة المحسوسة الخام ، والجسم الحي لا يوجد حتى منذ  
المستوى البيولوجي ، منذ الابيض البسيط ، حقل من القوى ،  
وكان اللون الاخضر للاوراق لا يجذب ، كانه قطعة مغناطيس ،  
الفعل المنعكس لارقام العشب عند الحيوان العاشب ، وكان  
هذه الدلالة الحيوية البيولوجية للصفة المحسوسة بالنسبة الى  
الجهاز العضوي لا تؤلف ( في مستوى الترويسم ، ثم الفعل  
المنعكس ) ما قبل تاريخ الاحساس .

هذا الماقبل التاريخ البيولوجي هذا الذي أغفله ميرلو  
بونتي وفي سبيل حاجات القضية الثالثة ، كان لا يجب  
الابتداء بمدلولات بيولوجية ، تعبر عن ذاتها بتعابير من  
سببيه ، وانما اقتضى البدء بمدلولات نفسية ، يعبر عنها بتعابير  
غائبة . يقول ميرلو بونتي ( ص ١١ ) يكتشف التحليل في  
كلى صفة مدلولات تسكنها .

وبنبرني ايضاً ان يأتي كل شيء من الداخل ، وان

يكون الذاتي هو اول ، حسب مسلمات مثالية ، وان الصفة المحسوسة بان متول مدرك حسي ما او غيابه ليست نتائج الامر الواقع فاخرج الجسم ( الجهاز العضوي ) وانما هي تمثل الطريقة التي يواجه بها المحرضات ( ص ٨٩ ) .

خطوة جيدة ايضاً في اتجاه المذهب الذاتي الفردي ، ونصل الى هذه الصيغة اللذيذة ( ص ٢٤٥ ) ، ما يتبنى جسمي وضعية اللون الازرق ، احصل على شبه حضور اللون الازرق . وهذا تماماً كما لو قلنا ان الغياب هو مثل شبه - الحضور . ولتنصف ميرلوبونتي ، فكائبنا قد قال حقاً « شبه » ، وهو يشرع هذا « الشبه » في صيغة تستحق ان تأملها « ص ٢٤٨ » ويعيد المحسوس إلى ما أعرتة إياه ولكنني منه أخذته . هنا نبلغ الطريقة الظاهرانية من وجهة معينة ، مرتبة السمو وتمنعنا من كل تعليق .

وسوف نكتفي فقط بأن نبعث بعد هذا كله ، عما بقي من محسوس ففي نهاية متاهة الحس الظاهرانية ، زى الاحساس قد يبدو بكامله مجازاً . فهو ليس إلا مجرد افتراض يبتدع لانقاذ وهم العالم الموضوعي ( ص ١٢ ) : ليس الاحساس محسوماً . نحن نصل الى الاحساس حين تفكيرنا في مدركاتنا الحسية ، نريد التعبير بأننا ليست من صنعتنا مطلقاً .

انه الطريقة الخادعة حتما ، التي يتمثل بها ذهن ما تاريخي  
الخاص ( ص ٤٦ - ٤٧ ) .

اما بخصوص الطريقة الصحيحة تاريخ ذهننا ، فعلم ظاهرات  
الادراك الحسي ، يقدم لنا سره المكنون ( في الصفحة ٢٤٨  
التي نوهنا بها سابقاً ) ، هذه الهبة التي قدمها الى الواقع مع  
ما أعترته وإياه ، لانني أخذته منه .

ها نحن تقريباً في حدود المضحك ، قد عدنا الى اكثر  
المذاهب اللاأدرية تقليدية ، واكثرها نفاهة .

ونظرية المكان والزمان توجع الى مجموعة الحجج اللاأدرية  
والمثالية نفسها .

لقد طرحت المثالية والمادية قضية المكان بدون تمويه .  
هل أنا في المكان ، أم ان المكان هو في ؟

وانما هذا التعارض الصريح هو الذي يجهد ميرلوبونتي  
لتغطيه بالظلامية المنهجية التي تميز طريقته ، ويسأل ميرلوبونتي  
( ص ٢٨٢ ) هل صحيح أننا موجودون أمام المشكلة ، اما  
الادراك الحسي للأشياء في المكان . واما اذا فكرنا ، واذا  
كنا نريد أن نعرف ماذا تعني تجاربنا الخاصة ، أن نفكر  
المكان بوصفه النظام الذي لا يتجزأ لأفعال التراب - ط التي  
يتمها ذهن مكون وبلمهة ظافرة بخلص مؤاننا مستعينا بنجدة  
كبرى من المذهب الجشطالتي ، طبعاً بعد ان يخرج المادية

من الساحة ( ص ٢٩١ ) : كل شيء يحيلنا الى الارتباطات العضوية بين الذات والمكان ، الى هذا الادراك عند الذات لعالمها وهو مصدر المكان .

وهذا يعني بالعربية الفصحى ، بدوني لا يستطيع المكان ان يوجد ، وهذا ما يعبر عنه ميرلوبونتي بلسانه حين يقول : « الزمان مرتكز على عرضيتنا » ( ص ٢٩٤ ) .

وهنا أيضا ها نحن قد عدنا الى مواقف المثالية التقليدية ليس تمة مطلقا زمان ولا مكان في الاشياء ؛ ان ذهني هو الذي ينشرهما .

صحيح ان هذا المكان مختلف جداً عن المكان الكانتي لقد فقد جهازه العلمي ، لقد جرد من هيكله .

يقول ميرلوبونتي ( ص ٣٣٢ ) ، ان المكان الواضح هذا المكان الشريف حيث الاشياء كلها لها الاهمية نفسها ، والحق نفسها في ان توجد ، هو ليس فقط محاط وانما مخترق من جميع الجهات بمكانية تكشفها لنا تغيرات الموت .

هذا المكان الشريف الذي يعامله ميرلوبونتي بتواضع عجيب هو المكان الذي تعنى به الرياضيات والفيزياء . اما في نظر ميرلو بونتي فلم يعد الا شطراً من مكان المصاب بالهلوسة . إنه ليس الا شطراً فقيراً تماماً كما ان التفكير ليس إلا عملية افتقار للشيء الاصيل الذي لا يعكس .



وهنا أيضاً الفرق الوحيد بين مثالية ( كانت ) والميرو بونتي . هو ان هذا الاخير قد اتى بالعنصر العقلي في البحر . وهذه مثالية في حالة انحطاط .

ويجب ان نعترف لكي نكون منصفين ، بأن ميرو بونتي لا يقول : الذهن « فروبنسون » الذاتي الفردي قد وجد خادمه جمعه . فالجسم وهو عند ميرو بونتي نوع من الجسم السماوي ( والنجمي ، الكوكبي ) ، صالح جداً كما قلنا ، لكي يلعب دور خادم الذات بما انه يتوحد وذاتيتنا .

يقول ميرو بونتي ( ص ٢٣١ ) : ان السببية كالكان قبل ان تكون علاقة بين الاشياء ، هي مرتكزة على علاقتي بالاستياء » ( ص ٢٣١ ) . ان فرويد أسهم في تنمية الطريقة الظاهراتية بتأكيد ان كل فعل بشري له معنى . وبمحاولته ان يفهم في كل شيء الحدث الواقعي ندلا من ربطه بشروط آلية ( ص ١٩٥ ) . وإذا أخذنا بعين الاعتبار بأن ميرو بونتي بخاط بصورة منظمة بين السببية وبين الحتمية الآلية يظل ما يلي :

إن خاصة الطريقة الظاهراتية انما هي التخلي عن السببية لمصلحة غائبة « الدلالات » و « النيات » .

ويصرح ميرو بونتي عرضاً مستعيداً لحسابه ما كان يسميه

بول لانجان « التطوح الذهني » لمذهب الاحتمية في الفيزياء .  
الذي فضح استبداده لويس بردي في فنه مدة وجيزة ، نقد  
ذاتي جريء : « ان النقد الحديث للعدم » قد بين ما فيها  
من شيء « بناء » . ( ص ٤١٨ )

وميلو بونتي يؤكد مرتكزاً على هذه النقاهية ، فة في  
ما في معرفتنا ... ان الوجود هو غير معين في ذاته بسبب  
تكوينه الاساسي ... نحن نسمي تصعيذاً الحركة التي  
يستعيد الوجود لحسابه وبغير امرأ واقعياً ( ص ١٩٧ ) .  
وهذا النفي للنسبية هو مسلمة ضرورية لنظرية الحرية عند  
ميلو بونتي مثل ( الكليمان ) عند ابيتوروس .

هنا نقضي نظرتة المعرفة الى قضايا الحرية والتاريخ ، وهذا  
نستطيع ان ندرك لماذا بسط كل نظريته في المعرفة لكي  
يفسح مجالاً واضحاً لمفهوم للانسان ، وحرية والتاريخ يسمع  
بالنجاهة من المفهوم العلمي والثوري ، من المفهوم الماركسي  
اللينيني للتاريخ .

فلنفحص ادن ، النتائج العملية المترتبة على مذهب  
ميلو بونتي هذا ، ونستطيع ان نوجزها في القضايا الخمس  
التالية :

اولاً :

الواقع هو للوصف وليس للتحويل .

ثانياً :

ليس ثمة تاريخ إلا بالنسبة الى الذات التي نحيا .

ثالثاً :

ان مفاهيم الطبقة الامة ليس لها من دلالة موضوعية .

رابعاً :

العمل التورى لا يمكن إذن ، أن يستند الى السببية الموضوعية انه يشبه القنان .

خامساً :

الحرية قوة من قوى الفرار . انها تصعيد



أولاً :

ان علم الظاهرات يبين لنفسه مهمة وصف التجربة ، نظراً طبعاً لان هذه التجربة ، ليست تجربة الحس المشترك السليم ولا تجربة العلم .

ومنذ مقدمته ( ص ٤ ) ينبهنا ميلوبوتسكي ، الواقع هو الوصف وليس للالقاء ولا للتكوين ،

ثمة معنى : يجب ان يكتشف في الاحداث التاريخية ، دائماً كما يكتشف الارثو الصغيرين الاوراق .

والتاريخ هو أيضاً أحجية . ان جميع المراحل التأويجية تبدو كتظاهرات وجود واحد او كحوادث في مسرحية

واحدة ، ونحن لا نعرف اذا كانت لها نهاية حل (ص ١٤) .

لنا اذن ، أن نحل طلاس « معنى » الماضي . اما تشييد المستقبل بثقة عازمة فستحيل علينا ، بما أننا لا نستطيع الارتكاز على سببية موضوعية .

علم الظاهرات هو كشف للعالم . والفلسفة الحقيقية هي ان نتعلم مجدداً رؤية العالم « ص ١٦ من المقدمة » .

مهمة « علم الظاهرات » هي كشف سر العالم وسر العقل . ( الصفحة ذاتها ) . وهكذا نظل هنا دائماً في مستوى تفكير او انعكاس بيننا في مكان آخر ، ما فيه من اعتباطية . كما نبقى هنا في مستوي التقاطة وعي . فنحن محصورون في « دلالات » العالم ، وبدون أن يكون لنا بمسك عليه . بما ان العالم الموضوعي الذي يجعل لنا العلم سلطة عليه هو « عالم متخطي » .

ومن هنا كان الطابع الكلامي الصرف لصيغ مثلي . نحن نأخذ بأيدينا النح ... ( ص ١٦ من المقدمة ) فان افكار العلم والعالم الموضوعي ، ونزع الصلاحية منها قد جردنا من سلاحنا .

هكذا أرجعنا قرناً الى الوراء ، الى ما وراء . قضايانا عن مورياخ . الى فلسفة ليست الا نطاً من انماط تفسير العالم وليس تغييره .

ثانياً :

ذلك لانني كيف أستطيع تغيير عالم ليس له حقيقة واقعية موضوعية . يعلن ميرلوبونتي ( ص ٤١٦ ) ان ما هو اجتماعي ليس موجوداً كوضوع ، وبصيغة الغائب ، ليس ثمة تاريخ الا بالنسبة للذات التي تعيشه ، بعد المذهب الذاتي الفردي من الناحية الفيزيولوجية . ما هو المذهب الذاتي الفردي على صعيد التاريخ تماماً كما حصل لسديم لا بلاس ، ليس عصر بيوكليس الا زوايا خميري . وكالسديم ليس لعصر بيوكليس وجود بدوني .

فيمايتها الشمس ! لا تفخري بضوئك كل هذا الفخر ذلك لانك لن تبقي موجودة اذا انغمضت عيني !  
هكذا يتكلم ميرلوبونتي فليحكم القارئ ، يقول « ص ٤١٥ » .

« ان الوعي موضوعي والعلمي للماضي والحضارت سوف يكون مستحيلاً ، اذا لم يكن لدي بها اتصال تقديري افتراضي على الاقل . لو لم يكن موضع الجمهورية الاثينية ، او الامبراطورية الرومانية معلماً في ناحية ما على تخوم تاريخي العالم ، لو لم تكن مستقرة ثمة تماماً كافراد من البشر ينبغي التعرف اليهم ، غير معينين ولكن موجودين سابقاً .

لو كنت لا اجد في حياتي الكيانات الاسامية للتاريخ  
بكررميرلو بوتني في مستوى التاريخ ودلالته ، العمليات  
نفسها التي قام بها في مستوى « الظاهرة » .

نحن نعطي للتاريخ معناه ، ولكن ليس دون ان يقترح  
علينا التاريخ نفسه هذا المعنى ( ص ٥١٨ ) ، وهنا تتكرر  
العملية الوعرة نفسها عملية اعارة منحنا اياها ذلك الذي  
اعطيناه اياها لانه عهد بها اليها ، الخ ...

وهنا تناقض جديد قد نخطئ ، فيرلو بوتني يخصص  
قائلا بالهجة الظفر ( الصفة ذاتها ) :

« ان وقوفنا موقف المتدبر المتطلع الى الماضي اذا لم  
يحصل على موضوعية مطلقة ، ليس له ابدأ الحق في ان  
يكون اعتباريا » .

وانما يهاجم ميرلو بوتني المادية التاريخية ، انطلاقاً من  
هذه الاسس ، ويحدث الهجوم بصورة غريبة ، عند نهاية  
فصل عن الجسم بوصفه كائناً واحس ، وبمحجة اقامة مقارنة  
بين التحليل النفسي والمادية التاريخية ، زاعماً ان هذه الثانية  
تضخم مفهوم الاقتصاد كما يضخم فرويد مفهوم الغريزة  
الجنسية ( ص ٢٠٠ ) :

وتتألف العملية من عدة فترات :

اولا :

يحتج ميرلوبوتني على الخلط للنام بين المادية التاريخية  
وين ( مذهب حتمية اقتصادية ) .

يقول ( ٢٠٠ ) :

« ليست المادية التاريخية سببية مقتصرة على الاقتصاد »  
وهذا صحيح ولكن تحت ستار هذا التمييز الضروري .  
يهرب ميلوبونتي مفهوم انتقائياً عن التاريخ ، وهو يرجع  
المادية التاريخية الى هذا التأكيد بأن الانسان لا يصنع  
- معاً - عدة تواريخ : « تاريخ اقتصادي ، وآخر  
اميرولوجي الخ ... » . وانما هو يصنع تاريخاً واحداً مختلف  
جوانبه متعلقة بعضها ببعض خاضعة بعضها لبعض .

انها أي المادية التاريخية ، لا تجمع تاريخ الافكار الى  
التاريخ الاقتصادي ، ولكنها تعيد وضع الافكار في التاريخ  
الوحيد الذي يعبر عنه كلا التاريخين . وهو تاريخ الوجود  
الاجتماعي « الصفحة ذاتها » .

لقد ارتكب لابرولا هذه الغلطة منذ اكثر من نصف  
قرن فقال « المادية التاريخية هي المفهوم العضوي للتاريخ »  
وما هو مطموس في هذه القضية ، انما هو الدور الحاسم  
للاقتصاد في آخر تحليل . لقد سبق أن فضح المجلس في  
رسالته في ٢٧ تشرين الاول ١٨٩٠ الى كونزادت شميدت  
في آن واحد التفسيرات الآلية ، والتفسيرات الروحية ،  
لتعاليم ماركس .

وخاص المجلس قائلاً : « وما يقتر إليه هؤلاء السادة

جميعاً اما هو الديالكتيك . إنهم لا يرون دائماً إلا السبب هنا ، وهناك النتيجة . ولا يرون ان هذا تجريد فارغ ، وأن في العالم الواقعي لا يوجد ثمة ، أمثال هذه المناقضات القطبية الغيبية إلا في الازمات ، ولكن ان كل مجرى الاشياء العظيم يحدث في شكل فعل ورد فعل من القوى بدون شك ، جد متساوية - فيها الحركة الاقتصادية القوة الاشد بكثير من سواعا ، والاكثر اولية والاكثر حاسمة ، وان ليس ثمة شيء مطلق ، وان كل شيء هو نسبي . كل هذا - ماذا تريد ؟ انهم لا يرونه .

ففي نظر هؤلاء لم يوجد هيغل ( ١ ) ، ولا يمكن ان نحدد بأفضل من هذا التحديد موقف ميرلو بونتي الذي يتوجع بين النزعتين الآلية والروحانية مع موافقه « إما ... وإما » . ( ص ٢٠٠ ) والذي بتخطاها على طريقته يعني بمذهب ظلامي انتقائي . « إن النظرية الوجودية في التاريخ هي نظرية مهمة ؛ ولكننا لا نستطيع ان نأخذ عليها هذا الابهام ، ذلك لانه موجود في الاشياء . ( ص ٢٠١ ) . هنا يكمن سر النزعة الانتقائية عند ميرلو بونتي وهو يقوم في ان ينشر في الاشياء ، التباس فكره وابهامه والابهام هنا يقوم إزاء الماركسية . وبما انه على كل حال يصعب الانكار بأن الثورة الفرنسية البورجوازية عام ١٧٨٩

( ١ ) دراسات فلسفية - لماركس وانجلز - المنشورات

الاجتماعية ١٩٥١ ( ص ٦٥ ) .



وثورة عام ١٩١٨ الاشتراكية نتجتا عن علاقات طبقية يقوم ميرو بونتي بهذا التنازل . انما فقط عند دنو ثورة ما يلاحق التاريخ الاقتصاد ، ( ص ٢٠١ ) .

ولكن ميرو بونتي يثار للتراجع المفروض على مفهومه المثالي للتاريخ وذلك بطريقتين :

اولا :

بالتصريح بأن الثورة هي بالنسبة الى المجتمع كنسبة المرض الى الفرد ، فكما ان المرض في حياة الفرد ، يخضع الانسان لوتيرة جسده الحيوية ، كذلك في وضع ثوري .. تظهر علاقات الانتاج « ص ٢٠١ » . وبعدئذ يدخل ميرو بونتي من النافذة المثالية التي طردها من الباب .

يقول « الصفحة ذاتها » . والمخرج رهن بالكيفية التي تفكر بها القوى الموجودة في الساحة بعضها ببعض . وهكذا تصبح الثورة ضرباً من ضروب لعبة البوكر . وعلى هذا النحو أعدمت المادية التاريخية بملاحظة بسيطة لا تشبه الدحض الا شبهاً ضئيلاً .

ولكن لم تكن هذه لا غرفة الانتظار ، فالنتائج النهائية للكتاب تعرض علينا الرصيد العملي للنظرية الميرو بونتي في المعرفة : نزاع هيكل التاريخ وتجريده من كل تركيب موضوعي يتيح لنا التأثير فيه .

لقد مهدت نظرية المعرفة الطريق تمهيداً حسناً لقد كان الامر الجوهري المهم هو تجريد التاريخ من موضوعيته ، وقد سبق ان نبيها ميرلوبونتي الى ذلك « ص ٤١٦ » ، ان ما هو اجتماعي لا وجود له كشيء موضوعي .

وقد وضع ميرلو بونتي هذا التأكيد بمثابة تاريخي : ان معركة واتراو الحقيقية ليست إلا في ما يرى فابريس (١) . لا في ما يرى الامبراطور نابليون ، ولا في ما يرى التاريخ فيها ، انها ليست موضوعاً يمكن تحديده ( الصفحة ذاتها ) . ولماذا كان هذا ؟ فلنترك لميرلو بونتي فابريس ونابليون ، ولنضع الاسباب التي من اجلها ، يرفض المؤرخ امكان الوصول الى الحقيقة : « انه لا يصل الى المعركة نفسها ، بما انه في اللحظة التي جرت ، كان مخرجها محتمل الحدوث .

ولان هذا لم يعد حين يروى المؤرخ ان الاسباب العميقة للهزيمة والاحداث العرضية التي سمحت لتلك الاسباب بان تعمل عملها كانت في حادث واترلو المفرد حاسمة تماماً بنفس قوة الجسم ، ولان المؤرخ يضع مجدداً الحدث في موضعه من الخط العام لتدهور الامبراطورية ( ص ٤١٦ ) وما يأخذه ميرلوبونتي على المؤرخ هو ان هذا يرتب الاسباب ، يعني انه يأخذ عليه بالضبط ما يسمع له بان يقوم بتاريخ

---

(١) أحد أبطال ستندال - في رواية الأحرار والأسود - وكان متأرجحاً بين الكهنوت والجيش .

علمي ، وهذا ما يجد ميرو بونتي لكي لا يراه في المادية التاريخية .

وهنا مفهوم التاريخ عند ميرو بونتي ليس متخلفاً اذا قيس بمفهوم ماركس وانجلز وحسب ، وانما هو متخلف اذا قيس بمفهوم مونتسكيو الذي ادرك هو نفسه العلاقات بين الاسباب العامة والاسباب العرضية ولم يكن يخلط بينها الى درجة اعلانها « حاسمة على حد سواء » . كتب مونتسكيو - ثمة اسباب عامة تفعل في كل مملكة قترفعها ، وتحافظ عليها أو تؤدي الى تدهورها . ان جميع الاحداث الطارئة خاضعة لهذه الاسباب ، فاذا كانت مصادفة معركة ما ، يعني سبباً خاصاً ، قد دمر الدولة ، فثمة سبب عام ، اوجب على هذه الدولة ان تهلك بمعركة واحدة .

### ثالثاً

ولكي ينزع من التاريخ كل بنية موضوعية تتبع لنا التسلط عليه ، يجهد ميرو بونتي لنفي الواقع الموضوعي للطبقات والامم .

ونجد مجدداً في البدء الادعاء نفسه بتخطي المثالية والمادية المعرفتين هكذا وان الفكر الموضوعي ( وهذا نعت آخر حجول للمادية ) يستنتج الوعي الطبقي من شروط الحياة الموضوعية البروليتاريا . أما التفكير المثالي فيرد وضع البروليتاريا الى ما يأخذه عنه البروليتاري من وعي

( ص ٥٠٦ ) وهذا ما كان يعد بأن يكون واضحاً : هل الوعي يسبق الوجود ام الوجود يسبق الوعي ؟ ولكن ميرلو بونتي يعود فيفرقنا في خليط من الافكار الانتقائية . يقول لنا ( ص ٥٠٦ ) فلنعد الى سؤال مع رغبتنا ليس في اكتشاف اسباب لقطة الوعي ... وليس شروط امكان هذا الوعي ... وانما وعي الطبقة نفسها ... هذا ما يسميه ميرلو بونتي منهجا وجوديا . هذا المنهج لا يتم الا بالاسباب ولا بشروط امكان لقطة الوعي ، فهدفه هو تحويلنا عن هذا البحث الذي يسمح لنا بالمساعدة على لقطة الوعي هذه والتعجيل بها ، وهذه هي مهمة الماركسية اللينينية ، وذلك من اجل تغيير العالم . ان طريقة ميرلو بونتي الوجودية هي احدى الالف طريقة وطريقة لصرفنا عن تغيير العالم ، وتجريدنا من سلاحنا لمحاولة تأخير هذه التغيرات ، وهذه الطريقة قود المؤلف الى هذه المسئلة :

« ليس الاقتصاد ... هو الذي يمنحني صفة البروليتاريا » ( ص ٥٠٦ ) وهذه قضية علمية حللها ماركس منذ اكثر من قرن وميرلو بونتي يريد تعريفها من مضمونها الموضوعي .

كان ماركس يعرف البروليتاري ، من هو متقبل .

اولا :

الذي لا يملك وسائل الانتاج .

ثانياً :

الذي هو حر في بيع قوة عمله .

ثالثاً :

الذي ينتج الفيه للزائدة .

ويضيف ماركس ان هذا كله لا يتعلق بالوعي الذي يحول  
البرولتاري عن وضعه . ان الطبقة موجودة في ذاتها قبل  
وجودها اذاتها الوجود يسبق الوعي .

يستبدل ميرلو بونتي بهذه المفاهيم العلمية الموضوعية ما  
يسميه المجلس « خليطاً انتقائياً » .

يقول ميرلو بونتي ( ص ٥٠٦ ) ، عندي نمط معين  
من الحياة ، بل ان التحليل الذي يقوم به اللقطة الوعي  
ينمض ضد مقدماته .

يسمع العامل عمال آخرين حصلوا بعد اضراب ما على  
زيادة في الاجور . . ان العامل الزراعي المياوم غالباً يكون  
لم ير عمالاً انه لا يشبههم .

هكذا يقول لنا ميرلو بونتي ( ٥٠٧ ) ويشرح لنا  
الاول يكتب الوعي الطبقي بأسهل مما يكتبه الاخر .  
وهكذا فيميرلو بونتي يعترف مرغماً بان تركز العمال في  
المصانع الكبرى بالمدن ، ووحدة اوضاعهم - الشروط  
الموضوعية - يجعل بلقطة الوعي ، وان التبعض الريفي

واختلاط الشروط - شروط موضوعية اخرى - يجعل لقطة  
الوعي هذه أصعب ..

هذه هي الشروط الموضوعية التي تجعل انه يوجد في  
حزب ثوري من العمل اكثر مما فيه من البورجوازية  
( ٥٠٩ ) الطبقة ليست لا ملاحظة ولا مقررمة بموسم .  
وهو لا ينجح في الخروج من هذا التعارض الغيبي ؛ الذي  
تحدث عنه انجلس : « اما ان الوعي الطبقي يستنتج آلياً  
من واقع الطبقة الموضوعي ، واما ان الوعي يخلق  
الواقع .

اما الآلية واما المثالية . وميلو بونتي ينسب الى نفسه  
بشئ نجس ، فضل « تخطي » هذا التعارض الذي حنته  
المادية الديالكتيكية منذ زمن طويل جداً ، ولكن أليس  
الامر الجوهري المهم في نظر ميلو بونتي هو ان يجد مخرجاً  
لا يكون هو الماركسية .

ثالثاً :

ومنذ هذه اللحظة ، ماذا يصبح العمل الثوري ؟ انه بعدم  
استناده الى اية سببية موضوعية ، اصبح شيئاً بالابداع  
الفني ، الحركة الثورية ، شأن عمل الفنان هي مقصد بخلق هو نفسه  
أدواته ووسائل التعبير عنه ( ٥٠٨ ) هكذا لم تعد الثورة الحل  
التاريخي لتناقض موضوعي .

انها عمل ما لست أدريه من آلهة خلاقين يبرزون من  
سواد جماهير التي يقتصر عملها ، على انها كانت تنضج فيها

حركات للتسرد : ان الثورة هي في خاتمة مساعيهم وفي مشروعاتهم في شكل « يجب ان يتغير هذا » ( ص ٥٠٨ ) هكذا يقول لنا ميرلو بونتي ويضيف ( الصفحة ذاتها ) ، ان هؤلاء وأولئك يفضون الى الثورة التي كانت قد نزعهم لو وضعت لهم ومثلت .

وفوق هبة القطيع هذه ، يدقق المؤلف ان الثورة التي يوماً فيوماً من توابط غايات قريبة بغايات أبعد منها ( الصفحة ذاتها ) .

ان واقع نشر مؤامرة الصمت علي مائة عام من الصياغة والاعداد النظري للطلاب الماركسية ونفوذها الى الجماهير الواسعة انما يتم عن النية الاساسية عند المؤلف : إنكار الطابع العلمي للثورة الماركسية ، والطابع الموضوعي لتعليقها التاريخي وهذا هو التتويج النهائي لكل المشروع الظاهراتي .

ووصف المثقف الذي يصبح ثورياً ، هو ذو دلالة ايضاً : « يبحث المثقف عن عقيدة تتطلب منه الكثير ونشفيه من الذاتيه ( ص ٥١٠ ) : ولا يمكن ان يعرف بأفضل من هذا التعريف ، انخراط مغامر في القضية الثورية . فلو كان المثقف لا ينخرط الا لهذه الاسباب الذاتية المحض ، فلا يمكن ان يكون اذن ، الا مغامراً يبحث على طريقة مالرو ، عن فتوة مخمورة ذاتية في مغامرة ثورية . وهنا ايضا يدعر ميرلو بونتي ، بما يقدم هو نفسه من وصف . فهو يوافق علي استثناء

ينحى للبين ، متجنباً هكذا تحليل حقيقة سير المثقف الداخل  
الى صفوف الطبقة العامة بإدراك حركة التاريخ حسب  
تعمير ماركس .

ولكن هذا التحليل كان يبدو مستحيلاً على ميرو بونتي  
لسببين .

### اولا :

لانه يريد بالغا ما بلغ الثمن ان نبغي موضوعية الحركة  
التاريخية ، ثم لانه ينبغي ايضا واقع التفكير التشاوري  
التداولي الذي يقود انسانا الى ان حياته منضوية في الطريق  
التي اختارها .

يقول ميرو بونتي ( ص ٤٩٨ ) ، والواقع ان  
التشاور يلي القرار . وانما عزمي السري هو الذي يبرز  
المحركات ، ولا يمكن ان نفهم قط حتى ما يمكن ان  
تكون قوة باعث ما بدون ان يكون ثمة عزم يؤكد  
او يعاكس .

ففكرنا اذن وانما يعنيه في نظر ميرو بونتي هذا  
الاستعداد المسبق ، الاستعداد العزم اللاعقلاني ، وفي نهاية  
هذا كله لا يبقى ثمة شيء مطلقاً ، لا يمكن ان يقود عمل  
الانسان ، فالفكر هو وهم ، كما ان العالم الموضوعي وهم  
كذلك ، وانها كفلسفة العجز .



## خامساً :

من هذا لعدم تبرز الحرية . ما هي الحرية إذن ؟  
هكذا يسأل ميولو بونتي ( ص ٥١٧ ) ويجب طبعاً :  
ليس ثمة ابدأ حتمية ولا ثمة ابدأ اختيار مطلق . وكما فعل  
في القضايا السابقة ، اذا كان ميولو بونتي يحفظ حتى النهاية  
بمعارضته للمذهب الآلي الذي يخلط دائماً بينه وبين المادية .  
فهو يعود دائماً بعد التواءات عديدة إلى مواقف المثالية  
الذاتية يقول ( ص ٤١٣ ) :

« إننا بالنسبة إلى مصري أن الكون حراً ... أن  
احتفظ أزاء كل وضع واقعي بخاصية تراجع ... وهكذا  
عدنا إلى ( الكيان ) يعني إلى الاختيار المطلق .

وهذا التعريف للحرية يشبه شياً عظيماً تعريف التنعالي  
الذي يورده ( ص ١٩٧ ) سوف نسمي تعالياً هذه الحركة  
التي بها يستعيد الوجود لحسابه وضعاً واقعياً ونحوه . فالحركة  
هي تمام اختيار حر متعال . انها تمزق في السيج السبي .  
الحرية « هي قدرة على الفرار » ( ص ٢٠١ ) .

ومن أي شيء إذن ، يتعلق الأمر بالفرار ؟ هناك شعب  
يخيم على أوروبا ... انه شعب الشيوعية ... هكذا كانت  
يقول مارتينيخ . ومنذ مائة عام ، ليس ثمة أية نظرية في  
المعرفة أو عقيدة في الحرية لا نحاول عن وعي أو عن غير  
وعى ، النجاة منه واستخراج روحه الشريرة .

وهذا الجهد يظهر في جميع المناورات الفلسفية ندفع الى العمل للتخلص من مفاهيم الموضوعية والسببية ، فاذا كانت تاريخ موضوعي ، يخضع لقوانين موضوعية ، واذا كانت توجد سببية ، عندئذ هذا التاريخ يشهد باطمئنان بأن تناقضات الرأسمالية تسير بهذا النظام الى هلاكه ، وفي الافق يمر شبح الشيوعية .

ان مهمة كل فلسفة تتقبلها البورجوازية وتؤيدها هي اذن ، محددة بوضوح تام ، ان على هذه الفلسفة ان تثبت ان التاريخ العلمي مستحيل ، ذلك لان ليس ثمة واقع تاريخي موضوعي . والقيام بهذا الاثبات يقتضي ان تهاجم الموضوعية بصورة أعم ، يعني ان تهاجم موضوعية العلوم . فيكون كل اكتشاف علمي عظيم جديد مناسبة للاعلان ازمة العلم ، بل الاعلان : افلاس العلم . وسوف يكون الفيلسوف متربصاً لاقل ثغرة مؤقتة تبدو في السببية لينادي « باللاحتمية » ، وقد بلغ من قوة هذا التيار ان عالماً من طبقة لويس دو بروي حمل على الاعتراف بجرأة بأنه استسلم طوال ربع قرن لهذا الاستبداد القاتل باللاحتمية .

ونرجو ان يفهمنا القاريء حق الفهم ، فمن الخطأ الاعتقاد بأن كل فيلسوف او عالم يصوغ مثل هذه النظريات في المعرفة او الحرية يكون عازماً متعمداً على خدمة مصالح الطبقة البورجوازية المنهارة ، فهذا لو حدث لكان عردة

الى مفهوم آلي للتاريخ ، ولكن ما هو صحيح ، هو ان كل فلسفة منجبة هذا الانجاء ، فمن المؤكد انها ستعطي برضى الطبقة البورجوازية ، وتغطي بأقصى انتشار ممكن ، واعظم تكريم رسمي ، ويحدث هذا كائنا ما كان اتجاهها ، سواء تعلق الامور بالبرغسونية « اللاعقلانية » ، او بعقلانية « ألان » الزائفة ، او بوجودية غوربال مارسيال الكاثوليكية ، او بوجودية سارتر الملحدة .

على هذا النحو نستطيع البورجوازية ان تدعي مظاهر النزعة التحررية انها متساحة ، بل انتقائية ازاء جميع العقائد التي تلبي المتطلبات الايدبولوجية للطبقة البورجوازية في مجموعها ، يعني بالنسبة الى جميع العقائد التي يمكن ان تفيد في رفع سد ضد المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، وبصورة اكثر شمولاً ضد فكرة عالم موضوعي وتاريخ موضوعي .

ان كتاب علم ظاهرات الادراك الحسي لميرلو بونتي هو مؤلف غوفجي بلبي بصورة رائعة جميع اوامر الفكر البورجوازي ، فالمذبح الذاتي الفردي لعلم الاجتماع مدفوع في مؤلف ميرلوبونتي هذا الى حده الاقصى .

يقول المؤلف ( ص ١٩٧ ) ، كذلك انا الذي اجعل الغير يكون بالنسبة الي .  
اذن فليس ثمة - في نظر ميرلو بونتي - في عالم الطبيعي

او الاجتماعي شيء يمكن ان يكون له من معنى الا  
المعنى الذي اريد ان امنحه اياه . لن نجد فلسفة تقوم  
بشد ازر نظام وعهد محتضرين ، وتتمشها كما تفعل هذه  
الفلسفة التي تعلم بان سير التاريخ قد توقف ، فهذا للقلق  
هو اليوم قلق الطبقة البورجوازية بكاملها ، التي تخشى  
نهاية العالم ، ذلك لانها تسمع فعلا من كل جانب ، طقطقة  
عالمها الذي يتداعي وينهار .

انها تبتهج حين نسمع « فيلسوفا » يقول لها قول  
ميرلو بونتي ويودد ( ص ٤٩٦ ) . مرة أخرى نقول بدهي  
ان ليست ممكنة الفهم أية علاقة سببية بين الذات وجسدها ،  
او بينها وبين عالمها او مجتمعا .

بدهي ... يقول ميرلو بونتي : بدهي ... وهذا يعنيه  
من نقول البراهين ويجعل المادية خارج الساحة فيكفي - في  
وجهه ... ان نردد غالبا هذا القول :

ان طريقة كويه ( ١ ) المطبقة على نظرية المعرفة  
والحرية ، اذا هي العلاج الاخير لعالم محتضر ، وللمحاولة النجاة  
من اليأس ، محتاج الى وسيلة للنجاة ، وهي ان يؤم نفسه  
بان حالته ليست سيئة الى ذلك الحد الذي يبدو عليه .

وميرلو بونتي يخلق حقا فلسفة ليستعملها عالم معنوه ،  
شوه ، محتضر ( ٢ ) ، وهو يعترف بذلك بصورة مشيرة للفضول

( ١ ) طريقة كويه طريقة في الالقاء الذاتي .

( ٢ ) بسط ميرلو بونتي في خطابه الافتتاحي في (الكويج  
دوفرانس ) دور الفلسفة حيال التاريخ والحياة الاجتماعية فقال  
انه « طاعة بدون احترام » .

في مطلع فصله عن الحرية : انا من ناحيتي لست لا حسوداً ولا أحدب ... وكثيراً ما يدهش الناس من ان المصاب بعاهة او المريض يستطيع ان يحتمل الحياة وانما يحتملان الحياة لانها لا ينظران الى نفسها نظرة محتضر او مصاب بعاهة فتى لحظة غيبوبة الموت ، يظن المحتضر حالا فيه وعى . انه جميع ما يراه . ان عنده هذه الوسيلة من وسائل الفرار ويتابع ميولو بونتي ( في الصفحة ذاتها ) ، ان المصاب بعاهة او المحتضر لا يعيان حقيقة حالتها الا حين بأخذان عن نفسها نظرة موضوعية .

هذا هو السبب الذي كانت الموضوعية من اجله العدو الاول لعالم محتضر ، لما كانت يسميه لينين « الرأسمالية المتعفنة » ولهذا السبب جميع ضروب اللاأدوية والمثالية الذاتية سواء تسمت ( المذهب التفاهي ) ، او المذهب الدولي ، او فلسفة الذرائع ، او الوضعية المنطقية ، او الحدسية او الوجودية ، او الظاهرانية ، تستشري كأنها السرطان في جسم هذا النظام المنهار حتى لحظة غيبوبة لموت .. هذه الوسيلة من وسائل الفرار .



طبع الكتاب في  
دار الطباعة العربية  
بيروت - السور